

كتابي
٣١
كيف تحصل
على الثروة
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع


HOW TO GET
RICH AS FAST
AS POSSIBLE
By
THE EDITORS
OF FORTUNE
كيف تحصل على
الثروة
فى أقصر وقت !!
الكتاب الذى جمع لك مادته محررو مجلة "فورشن"
من حياة مائة من كبار رجال المال والصناعة فى أمريكا..
ليرشدوك إلى طرق النجاح والثراء !

يسر « كتابى » أن يقدم اليوم للشباب الطامحين هذه المختارات من قصص النجاح العديدة التى يتضمنها هذا الكتاب النافع ، على أن يتبعها بقصص أخرى منه فى الأعداد القادمة ، كى يستمر هذا الباب حافزا مستمرا لهم !

سلك زنبركى يجلب الثروة والشهرة !

سبع وثمانون قدما من السلك العريض .. سلك « الزنبركات » الفولاذى ، الذى ينطلق بشدة إذا لففته ثم خففت الضغط على اللفة . وهذه الأقدام السبع والثمانون ملفوفة بعضها حول بعض ، على شكل بكرة قطرها ثلاث بوصات ، وارتفاعها بوصتان .. هذه البكرة ــ ذات الحركة الحية الوثابة ــ هى التى الهمت « ريتشارد جيمس » فكرة لعبة للأطفال ، جعلته من المخترعين ، وجلبت له ثروة ، وخلعت عليه شهرة فى ميدان صناعة اللعب ، حتى لقد بلغ مجموع مبيعاته ــ فى سنة ١٩٥٤ ــ نصف مليون من الدولارات !

لقد ولد « جيمس » ـ منذ اربع وثلاثين سنة ـ لوالد يمتلك « ورشة » للنجارة ، فى (فيلادلفيا) . وفى سنة ١٩٣٩ ، اتم دراسته واصبح مهندسا ، فاشتغل فى مصانع « نيوبورت نيوز » للسفن ، بمرتب أسبوعى لم يتجاوز ٢٣ دولارا . وكان

اول ما فعله — بعد حصوله على المنصب — أن تزوج من إحدى زميلاته فى الدراسة .

وعندما وضعت الحرب اوزارها ، ترك « جيمس » مصانع السفن ، واشتغل ببيع اجهزة تكييف الهواء . وانصرف — فى وقت فراغه — إلى دراسة فكرة كانت قد طافت بذهنه ، فى اثناء الحرب ، إذ شهد « زنبركا » ينطلق من يده بحركة غريبة . وراح يجرى تجاربه على السلك الزنبركى ، ثم تحول يريد ان يستغله فى لعبة مبتكرة يدفع بها إلى السوق . ولكنه لم يجد تشجيعا من المشتغلين بتجارة اللعب ، فلم يفت هذا فى عضده . بل عكف على إنتاج نماذج من لعبته المبتكرة ، واسلمها إلى متجر صغير للعب — فى فيلادلفيا — ليبيعها لحسابه .. وقبل ان يأوى « جيمس » إلى فراشه — فى ذلك اليوم — كان المتجر قد باع أربع « دستات » .. اى ٤٨ قطعة !

واستأجر « جيمس » — فى الحال — « ورشة » صغيرة ليصنع فيها لعبته .. ثم افتتح معرضا لإنتاجه ، فلم تنقض تسعون دقيقة على افتتاح المعرض ، حتى كان قد باع ٤٠٠ قطعة ، لقاء دولار واحد عن كل قطعة . وفى غضون ثلاثة اسابيع ، ارتفع الرقم إلى ٢١٠٠٠ قطعة ، وتهافتت على طلب اللعبة ، متاجر لعب الأطفال !.. وقبل ان ينقضى شهران على بيع اول قطعة ، كان « جيمس » قد باع أكثر من ٥٠٠٠٠ قطعة ، كان صافى ربحه فيها ١٥٠٠٠ دولار .

وفى العام التالى ، حاولت إحدى شركات اللعب ان تنتج لعبة مشابهة ، ولكنه رفع الأمر إلى القضاء ، دفاعا عن حقوق الابتكار ، فربح القضية ، واكتسب دعاية عن طريقها . ولكن الحظ لم يكن مواتيا على طول الخط . ففى سنة ١٩٤٧ ، اتى الحريق على ما قيمته ٤٠٠٠٠ دولار من اللعب . وفى اول العام التالى ، أصيب « جيمس » بمرض خطير ، وتعذر على مصنعه الحصول على الفولاذ . غير أن زوجته — التى كانت تدير العمل اثناء ملازمته المستشفى — استطاعت أن تعقد اتفاقا مع إحدى شركات الفولاذ الكبرى . ولم ينته العام ، حتى كانت أرباح الزوجين قد تجاوزت ١٨٠٠٠ دولار .. الأرباح الصافية !

ووجد « جيمس » أن الظروف كانت تضطره إلى دفع رشوات بسيطة لمفتشى المصالح ، الذين كانوا يشرفون على الورشة والمبانى ، ليسهلوا له مهامه . ولكن كرمه لم يزد المفتشين إلا جشعا ، فلم يكن منه إلا ان ذهب إلى النائب العام ، وافضى إليه بالأمر كله .. وسرعان ما كان اسمه وصورته فى كل صحيفة .. وكانت دعاية بالمجان ! ولكنه اضطر إلى ان ينقل نشاطه إلى منطقة أخرى .

واتسع مصنع « جيمس » فشرع ينتج « زنبركات » لبعض الشركات الصناعية ، كما ابتكر أشكالا جديدة للعبته .
وأصبح مصنعه ينتج ٧٠٠٠ قطعة فى اليوم الواحد !

الى النجاح والثروة .. فى قطار!

أن احلام الصبا ، إذا اقترنت بقوة العزيمة فى نفس طموحه ، استطاعت ان تحول الفشل إلى نجاح .

بالرغم من أن « آيك دفى » لم يتلق اية دراسة تتصل بالسكك الحديدية ، إلا انه ظل يسعى جاهدا ، حتى أصبح — فى يوليو سنة ١٩٥١ — رئيسا لمجلس إدارة الشركة التى كانت تشرف على الخط الحديدى الممتد بين (اندرسن) و (ليبانون) ، بولاية (انديانا) الأمريكية .. وكان الخط فاشلا ، لا يدر شيئا من الأرباح ، بل إن خسائره بلغت — إذ ذاك — ۱۰۰۰ دولار فى الأسبوع !

ولقد بدأ « دفى » حياته عاملا فى مصانع تعبئة اللحوم المحفوظة ، بأجر لا يمكن تصور ضآلته ، ولكنه — عندما اعتزل العمل أخيرا — كان من كبار المشتغلين بهذه الصناعة . إذ ذاك ، حلا له ان يشغل وقته بالسكك الحديدية . فقد كان فى صباه يقضى كل وقت فراغه محوما حول محطة السكة الحديدية فى بلدته — (لارجو) بمقاطعة انديانا الأمريكية — واستطاع ان يتعلم اشارات « المورس » وان يقوم ببعض أعمال المحطة ! ولكنه لم يكد يغادر المدرسة الثانوية — وهو فى السادسة عشرة — حتى انصرف عن المحطة وعن السكة الحديدية ، إذ بات عليه ان يكسب عيشه ، فعمل فى شركة لتعبئة اللحوم المحفوظة . وكان دؤوبا ، مجتهدا ، ذكيا . فلم

يبلغ الأربعين من عمره ، حتى كان ذا ثروة ، ورئيسا لمجلس إدارة شركة — تحمل اسمه — لتعبئة اللحوم المحفوظة ، فى الغرب الأوسط بأمريكا .

ومع كل هذا النجاح ، فقد ظل حلم الطفولة يراود «دفى» ، فلم يكف عن التفكير فى السكك الحديدية .. واخذ يقضى اوقات فراغه فى صحبة العاملين بها ، من اعضاء مجالس الإدارات ، إلى عمال «التحويلة» !.. فلما نقل المقر الرئيسى لشركته إلى مدينة (اندرسن) — فى سنة ١٩٤٤ — توثقت العلاقات بينه وبين شركة (سنترال انديانا) ، التى كانت تدير الخط الحديدى الفاشل ، فخطر له ان من الممكن لهذا الخط ان يدر إرادا طيبا . وراح يسعى لشرائه ، ولكن مساعيه أخفقت .

ثم منى « دفى » — فى سنة ١٩٤٩ — بتداعى شركته ، فاضطر إلى ان يبيع كل اسهمه فيها ، وإلى ان يعتزل العمل فى تجارة اللحوم . ولكن الفراغ كان شديد الوطأة عليه ، فعاد يحاول شراء الخط الحديدى ، غير انه لم يظفر ببغيته ، لأن الشركة التى كانت تشرف عليه ، كانت تستغل خسائره فى التستر على ارباحها الطائلة من خطوط اخرى ، تهربا من الضرائب الباهظة .

ولكنه لم ييأس ، بل ظل يحاول ، حتى عين رئيسا لمجلس إدارة هذا الخط الحديدى، بمرتب اسمى، فكان اول ما فعله ، هو ان ادار الخط على اساس فردى . فبدلا من ان كانت الشركة تسير ثلاثة قطارات اسبوعية ، حتى هو بالاتصال

بكل شركة تشتغل بالتصدير وتهتم بنقل بضائعها إلى الميناء ، ثم عدل جداول قطاراته وفقا لحاجة كل شركة ، حتى لقد كان يسير — فى بعض الأحيان — قطارا لا يجر سوى عربة واحدة من عربات الشحن . وبهذه المغامرة الجريئة ، عزز اعتماد الشركات على الخط الحديدى ، كما اجتذب شركات جريئة . وأخذ الخط الفاشل يدر ارباحا ، فمضى « دفى » ينفقها على تحسين القطارات والمعدات ..

ولكن هذا الانفاق لم يزد الارباح إلا ارتفاعا ،وبعد أن كانت خسائر الخط — عندما تسلم « دفى » إدارته فى سنة ١٩٥١ — حوالى ٣٧٠٠٠ دولار ، إذا الارباح الصافية تصل فى سنة ١٩٥٢ إلى ٣٧٤٨٨ دولارا ، ثم وصلت فى سنة ١٩٥٣ إلى حوالى ٧٠٠٠٠ . فرأت الشركة أن تكافىء « دفى » بمنحه علاوة ، ولكنه رفض هذه العلاوة ، وطلب أن يؤذن له — فى مقابلها — بأن يسير عربة خاصة به على الخط ، أصبح يدعو صبية الجيرة ليتنزهوا فيها ، وهو يقول : « هذا شىء لم يتح لى فى صباى .. ومن يدرى أن لن يكون بينهم قطب من أقطاب السكك الحديدية ! » .

تشغيل العمال مصدر ثروة لزوجين

لن تعييك الوسيلة إلى الكسب ، إذا عقدت النية صادقا .. وهذا ما تلمسه فى قصة «دونا وبركمان» .

كان الاعتقاد السائد قديما ، هو أن الناس ينقسمون — من حيث العمل — إلى فريقين : فريق جاد ، نشط ، دائب على العمل .. وفريق كسول ، متخاذل ، محب للخمول . ولكن تطور الحضارة الصناعية ، أدى إلى ظهور فريق ثالث ، ينضم إلى الأول بعض الوقت ، ويستلقى إلى جوار الآخر فى فترات .. أولئك هم العمال الذين لا يحبون الاستقرار ، فتجد الواحد منهم لا يمكث فى عمل ما وقتا طويلا .. ولعله يؤثر البطالة إلى أن تنفذ موارده ، فيضطر إلى العمل أياما ، ليجمع ما يفى بمطالبه أياما أخرى !

وهذا الفريق أصبح مصدر ثروة لشخصين .. رجل وزوجته ! ومن الطريف أن لقبهما « ويركمان » .. أى « عامل » .

ولقد طرأت الفكرة — أول ما طرأت — ببال الزوجة « دونا ويركمان » ، منذ ستة أعوام . فقد كانت لزوجها مؤسسة لتزويد الشركات — فى ٦ مدن أمريكية — بالعمال المتخصصين فى العمليات المتعلقة بالكهرباء ، والذين كانت تمس حاجة الشركات إليهم فى مواسم معينة . وفى غير تلك المواسم، كانت المؤسسة تستبقى العمال لتؤجرهم بالساعة لأداء الأعمال الكهربائية. وكانت هذه المؤسسة تحظى بدخل سنوى بلغ فى سنة ١٩٥٢ ثلاثة ملايين وأربعمائة الف دولار .

وهذا الدخل الضخم ، هو الذى أغرى « دونا ويركمان » على أن تنشىء مؤسسة أخرى ، لا تقتصر على عمال الكهرباء وحدهم ، وأن لا تحتجز لنفسها عمالا بصفة دائمة ، وإنما هى تجمع المتعطلين والذين لا يحبون الاستقرار ، لتحصل لهم على أعمال وقتية فى مصانع تعبئة اللحوم المحفوظة وغيرها

من المصانع التى تحتاج — فى بعض الاحيان — إلى عمال فوق عمالها ، لمواجهة الطوارىء .

على أن الخدمات التى تظفر بها المصانع من المؤسسة ، لا تقتصر على تيسير حصولها على العمال ، وإنما تمتد إلى تيسير كل مشكلات العمال . فان المؤسسة تعفى الشركات من أن تكون بها اقسام خاصة لبحث الإجراءات التى يقتضيها استخدام العمال . من تأمين ، وضمان اجتماعى ، وطلب قروض ، وإعداد قوائم الأجور ، وصرف هذه الأجور .. اجل ، ان المؤسسة تقوم بكل هـذه العمليات ، فـلا تتكبد الشركة اكثر من أن تراجع كشف الحساب ، ثم تدفع لها قيمة الاتعاب !.. وزيادة فى تيسير العملية ، قدرت المؤسسة اتعابها بنسبة ٤ فى المـائة من كل كشف !

وفى الساعة السابعة من كل صباح ، توضع عنـد مدخل مقر المؤسسة — بشيكاغو — لوحة ، يكتب عليها بالطباشير اسماء الشركات وأنواع العمال الذين تطلبهم . ويتقدم العمال لاختيار ما يروق لهم من هذه الأعمال ، أو لعرض ما لديهم من خدمات لم يعلن عليها. وتؤثر المؤسسة العمال الذين يترددون عليها بانتظام ، بأحسن الفرص والاعمال . وقد أصبح عدد العمال الذين تقدمهم للشركات يوميا ١٥٠ عاملا فى الأوقات العادية ، وضعفهم فى مواسم النشاط .



الطريق إلى النجاح والثروة مفتوح للجميع !

أن الطـريق إلى الثـروة ليس محفوفا باليـأس والمثبطات ، كما يتصور الكثيرون .. أنه طريق مفتوح امام الجميع ، لا يقوم على ابوابه حراس ، ولا يحتاج الانتقال إليه إلى « جواز » .. كل ما يتطلبه هو قوة الملاحظة ، وسرعة البديهـة ، لكى تقتنص الفرصة الملائمة .. ثم حسن التصرف ، والاستعداد للبحث والدراسة والجـد والعمل ، لكى تمضى قدما .. أما سرعة انطلاقك فى هـذا الطريق ، فتتوقف على قوة عزيمتك ، ومدى ارادتك !

وفى هذا الكتاب ، اشترك محررو مجلة « فورشن » الأمريكية فى جمع سير مائة من كبار رجال المال والأعمال الذين بداوا حياتهم بلا شىء اكثر من فكرة مدروسة ، وعزيمة قوية ، واستعداد للتعب والعرق والمكاره .. وقد اخترنا لك فى العدد الماضى من «كتابى» قصص ثلاثة من هؤلاء العصاميين ، ونقدم لك — فيما يلى — عددا آخـر ، على ان نبقى هذا الباب مفتوحا ليكون حافزا مستمرا لكل راغب فى النجاح والثروة !

ثروة من الأثاث القديم

قـد تـكون الحـرفة شـائعة ، يمارسـها الـكثيرون . ولكن بوسـعك أن تتفـوق على سـواك ، إذا شـحذت تفـكيرك ..

ما اكثر متاجر الهدايا والأثاث المستعمل فى اية مدينة !.. ولكن هذه الكثرة لم تثن « ل .د. لوورى » الذى يبلغ الآن التاسعة والاربعين — عن أن يجرب حظه فى هذا الميدان !

كان عامل طلاء فى إحدى شركات السكك الحديدية ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، ثم استغنت الشركة عن خدماته. وبدلا من أن يملأ الهم نفسه ، آثار هذا الحظ طموحه ، فسعى حتى اقترض ٢٥٠ دولارا — أى حوالى ٥٥ جنيها بسعر النقد إذ ذاك — ثم اقنع صديقا له بأن يشترك معه بمبلغ معادل ، ليتجرا فى الأثاث المستعمل . واستأجر مكانا صـغيرا ، ثم سافر إلى المدن الصغيرة المحيطة بمدينـة (ماونت فيرنون) بولاية (تكساس) ، فابتاع من الأثاث القديم ما قيمته ٣٢٠ دولارا ، وعكف مع شريكه على اصلاحه وتجديده ، فانفقا فى ذلك ما كان قـد تبقى من رأس مالهمـا .. وباعـا الأثاث فكسبا ، ولكن الشريك كان قد اكتفى من المغامرة بهذا القدر ، فانسحب ومكث « لوورى » يعمل وحده !

ورسم « لوورى » لنفسـه سياسة خاصة ، تلك هى ان ينقل إلى اهل الريف ما يحظى به اهل المدن من خدمات فى مجال تجارته . فبدأ — فى سنة ١٩٣١ — فى نقل مشتريات العملاء

إلى مساكنهم بالمجان ، مهما تكن قراهم بعيدة ، كما شرع يبيعهم سلعة بالتقسيط . وما لبث أن ابتاع سيارة نقل كبيرة ، جعلها كمعرض للأثاث المستعمل ، واستأجر رجلا يصحب السيارة فى طوافها بالقرى ، ليبيع الأثاث لأهلها ، دون أن يجشمهم عناء السعى إلى المدينة .. ونجحت الفكرة ، حتى أن « سوليفان » ابتاع سيارة أخرى — قبل انقضاء ستة أشهر — وخصصها للتوسع فى هذه العملية .

واتخذ « سوليفان » خطوة أخرى ، فاتفق مع احدى شركات الإذاعة ، على أن تعلن عن سلعه فى فترات — مجموعها ساعتان — من يوم الأحد من كل أسبوع .. وتضاعف نجاحه فأنشأ صحيفة زراعية شهرية ، خصص ثلاث صفحات منها للاعلان عن تجارته التى لم تعد تقتصر على الأثاث المستعمل ، بل ضمت كذلك الأجهزة المستعملة والجديدة ، والهدايا ، والمصوغات .. واصبحت الصحيفة توزع ١٨ الف نسخة من كل عدد . واتسع نطاق تجارة « سوليفان » ، فأصبح يمتد فى دائرة نصف قطرها ثمانون ميلا ، حول (ماونت فيرنون) !

تجارة الحشرات والميكروبات والهياكل !

اينما وجهت بصرك ، فسوف تجد ناحية لم يسد فراغها احد .. وهذا ما فطن إليه يوما استاذ جامعى ، فكانت هذه بداية شركة كبيرة ناجحة .

كم من الناس خطر لهم أن الضفادع سلعة مربحة ، وأن للهياكل العظمية — إنسانية كانت أم حيوانية — « تسعيرة » وتجارة ؟.. إن « دار توريد المواد البيولوجية العامة » فى (شيكاغو) تورد للمعامل والكليات والمعاهد الدراسية ما قيمته مليون من الدولارات من هذه الأشياء ، فى العام !

بدأت هذه الشركة فى سنة ١٩١٤ ، برأس مال لم يتجاوز ٢٠٠ دولار ، أى ما لا يصل إلى ٥٠ جنيها بسعر النقد إذ ذاك . وكان منشئها استاذا لعلم الحيوان بجامعة شيكاغو ، هو المرحوم الدكتور « موريس ويلز » . فلما راجت تجارته . استعان — فى سنة ١٩١٨ — بتلميذ له ، هو اليوم رئيس مجلس إدارتها ، ويدعى « تشارلس كورزن » . وراحا يعملان ببطء على توسيع نطاق تجارتهما ، وتعدد سلعها ، حتى اصبحت تتداول عينات « الأميبا » ، والضفادع ، وبيض الحيوانات ، و « مزارع » ميكروبات الأمراض ، وكل ما قد يحتاج إليه اى عالم بيولوجى ، سواء للتدريس أو للأبحاث والدراسات .. فضلا عن أنها اصبحت تلبى بعض طلبات خاصة ، كالقواقع التى تعرضت لاشعاع ذرى !

ولقد تولى « كورزن » رئاسة الشركة فى سنة ١٩٣٠ ، فأشرف على اعداد دليل سنوى (كتالوج) لها ، يضم الآن حوالى الف صفحة ، بها حوالى ١٥٠٠٠ نوع . وهو يرسل إلى أكثر من ١٠٠٠٠ مدرس ، وعالم ، وأمين لمتحف .. منهم ١٥٠٠ خارج الولايات المتحدة . كما أن الشركة تصدر — منذ سنة ١٩٢٣ — نشرة شهرية ، تضم بعض البحوث الخاصة بحفظ العينات .

ويستخدم « كورزن » حوالى ١٥٠٠ صياد وبحاثة ، بينهم مدرسون يعملون بعض الوقت ، فى ٤١ دولة . وهو يرسل إليهم قوائم سنوية بالسلع التى يكثر عليها الطلب ، وعمولاتهم عنها ، والأسعار التى ستدفعها الشركة لكل سلعة منها .

وقد تجاوز رأس مال الشركة الآن ٨٠٠٠٠ دولار ، وكانت تجارتها هى التجارة الوحيدة الرائجة ، فى أشد أوقات الأزمات . وقد بلغ صافى أرباحها — بعد خصم الضرائب — فى سنة ١٩٥٣ ، حوالى ٦٨٠٠٠ دولار . أما مبيعاتها ، فكانت قيمتها حوالى .. مليونى دولار !

أزمة المساكن مورد طيب للثراء !

إن الزمن الحالى يتسم بالمساكن الضيقة ، وبأزمة الخدم .. وهاتان الظاهرتان قد تكونان مصدرا لثروة طائلة .

كان « سيدنى وود » من المع لاعبى التنس الأمريكيين ، منذ ربع قرن . أما اليوم ، فهو من المع أصحاب الأعمال . وقد بدأ حياته العملية ، بانشاء مؤسسة لغسل الثياب ، والغسل بالبخار ، والكى . ثم لاحظ ان ازمة المساكن ، دعت أصحاب البنايات إلى ان يضغطوا احجام الحجرات وعددها فى كل مسكن ، فأصبح من العسير إيواء خادم مع الأسرة .. فى حين ان انصراف المراة إلى العمل ، جعل الخادم عنصرا ضروريا . ومن ثم خطرت له فكرة سارع إلى تنفيذها ..

وكانت فكرة بسيطة ، ولكنها مبتكرة .. اختار بناية ، واقنع سكانها بأن يدعوه يزودهم بالخدم والخادمات — على اختلاف مهامهم — وبالطهاة ، إلى جانب أن يعهدوا له بغسل ثيابهم ورتق فتوقها وكيها . فكأنما البناية فندق لا يحمل نزلاؤه هم هذه الخدمات .

ويؤجر « وود » خدمات مستخدميه ، من طهاة — فرنسيين وإيطاليين وسويديين وأسبانيين .. الخ . — وخدم لأداء مهام الوصيفة والوصيف ، وخدم للعناية بالمائدة ، وخدم للتنظيف بأنواعه .. الخ . وقد بلغ مجموع ما تقاضته الشركة عن هذه الخدمات — فى سنة ١٩٥٣ — حوالى ربع مليون من الدولارات ، كان ثلثها أرباحا صافية للشركة .. وقد تضاعفت هذه الأرقام مرارا ، منذ ذلك الحين .

ويستخدم « وود » أكثر من مائتى خادمة — بين الجهاز الضخم من مستخدميه — يؤجر خدمات الواحدة منهن بدولار ونصف عن الساعة ، فى حين انه لا يدفع لها سوى دولار واحد . وقد كانت كبيرة « مدبرات المنازل » عنده جاويشة سابقة فى الجيش البريطانى ، تولت تدريب المجندات على إطفاء الحرائق اثناء الحرب العالمية الثانية . كما ان المشرف على حراس البيوت والحمالين ، كان « صول » للمرور فى البوليس الأمريكى !


HOW TO GET RICH AS FAST AS POSSIBLE
By THE EDITORS OF FORTUNE
كيف تحصل على
الثروة
فى أقصر وقت !!
الكتاب الذى جمع لك مادته محررو مجلة "فورشن"
من حياة مائة من كبار رجال المال والصناعة فى أمريكا..
ليرشدك إلى طرق النجاح والثراء!

قدمنا لك فى الفصلين السابقين نماذج من قصص نجاح العصاميين التى تضمنها هذا الكتاب الشائق .. وفيما يلى نماذج أخرى من نفس الكتاب :

يد الله مع الجماعة

كان « نادى الاستثمار المشترك » بديترويت مصدر إلهام لكثيرين ، حتى لقد انتشرت فى كافة ارجاء أمريكا النوادى التى انشئت على غراره . ولقد قام هذا النادى على فكرة بسيطة جدا .. تلك هى ان يلتقى اعضاؤه مرة فى الشهرة ، فيودع كل منهم ١٠ دولارات — أو مضاعفات ١٠ — ثم يستثمر المبلغ المجموع من الأعضاء ، فى نوع من الأسهم يختارونها .

ولقد انبثق مشروع إنشاء النادى ، فى خاطر شخص يدعى « فريد رسل » ، كان سمسارا لبيع الأسهم والسندات ، ثم هجر هذه المهنة ، حين حصل على منصب طبيب فى إحدى الشركات ، ولكنه تألم لهجران ميدان الأسهم والسندات . وصارح زميلا له — يدعى « جورج نيكولسن » بذلك ، فاذا حديثه مع الصديق يلهمهما معا بان يعملا على جمع عدد قليل من اصدقائهما الذين تتوفر فيهم الثقة المتبادلة ، ويؤلفون فيما بينهم جمعية لاستثمار مدخراتهم فى الأسهم والسندات .

واجتمع اول اعضاء للنادى ، فى فبراير سنة ١٩٤٠ .. وكانوا ستة ، ثم اصبحوا اثنى عشر عضوا ، وتوالت اجتماعاتهم بعد ذلك ، مرة فى كل شهر . وفى كل مرة ، كانوا

يختارون — بالتصويت — نوع الأوراق المالية التى يستثمرون فيها المبلغ الذى يدفعونه . وقد بلغ مجموع اكتتاباتهم فى السنة الأولى ٨٨ دولارا ، اشتروا بها ١٠٨ من أسهم سبع شركات.

ويسعى النادى إلى أن يستثمر مدخرات أعضائه — بانتظام — فى الشركات الناجحة . وكل دفعة تعطى صاحبها نصيبا فى النادى ، وصوتا فى اختيار نوع الأسهم . اى ان الذى يدفع دفعتين — فى المرة الواحدة — يصبح بنصيبين وصوتين فى تلك المرة . وتحتفظ أسهم النادى باسمه كهيئة ذات شخصية معنوية — فى إحدى دور السمسرة . وللعضو أن يسحب بعض ماله أو كله ، بعد أن تقوم الأسهم بالسعر الحالى ، وبعد خصم العمولة ، وخصم واحد فى المائة كجزاء يفرض عليه لانسحابه .

وقد تطورت رسالة النادى مع الزمن ، فأصبح كمؤسسة لاستثمار المدخرات وجمع ثروة منها لإعالة العضو عندما يضطر إلى التقاعد !

بائع أحذية ، ومحرر اعلانات ، وكاتب !

ان التاجر الناجح ، هو الذى يعرف كيف يعلن عن سلعته .. لا سيما إذا ابتكر اعلاناته بنفسه .

فى سنة ١٩٥٢ ، باع « سام سوليفان » ثمانين الف زوج من الأحذية ، اى ما يقرب من ٤٠ فى المائة من جميع الأحذية التى بيعت فى مدينة (لاردو) والمنطقة المحيطة بها ، فى ولاية

(تكساس) الأمريكية .. وفى العام ذاته ، كتب « سوليفان » حوالى عشرة آلاف كلمة للاعلان ، وحوالى أربعين الف كلمة لعمود للتعليقات تنشره له صحيفة « التايمس » — التى تصدر فى (لاردو) — مرتين فى الأسبوع !

كان « سوليفان » من انشط باعة الأحذية فى ولاية (ميسورى) و (تكساس) و (اوكلاهوما) ، أثناء دراسته فى المدرسة الثانوية . واستطاع — فى الوقت ذاته — أن يدرس منهاجا تجاريا . ثم استقر — فى سنة ١٩٣٧ — فى مدينة (لاردو) ، واستاجر قسم الأحذية فى متاجر « ريشتر » ، وهى من اقدم المتاجر التى تتعدد اقسامها لتوفر للعملاء اكبر عدد من السلع اللازمة لهم . وشغف « سوليفان » بأن يكتب بنفسه الاعلانات التى كانت تصدر عن قسم الأحذية ، فأثارت الصيغ المبتكرة — التى كان يبتدعها — اعجاب « وليم بريكسوت الين » ناشر صحيفة « التايمس » فى المدينة ، فسعى إلى اقناعه بأن يكتب صيغ اعلانات الصحيفة ، على أن يمنحه اتعابا فى مقابل ذلك ، وعلى ان ينشر اعلاناته الخاصة دون مقابل اللهم إلا نسبة ضئيلة — لا تعدو ثلاثة فى المائة — تخصم من الأتعاب ، مهما تكن المساحة التى تشغلها اعلانات احذية « سوليفان ! » .

وقد بلغ دخل « سوليفان » من الاعلانات — التى كانت تنشر بالإنجليزية والأسبانية — ١٥٢٫٣٤٣ دولار فى سنة ١٩٤١ ، وارتفع إلى نصف مليون من الدولارات فى سنة ١٩٥١

ويتبع «سوليفان» فى اعلاناته طريقة الحديث غير المتكلف ،

الذى ينفذ إلى أعماق السيدات بوجه خاص ، فهو يقول مثلا : « لنتكلم قليلا عن الأحذية ! » . ثم يبين أن « الكعب العالى » ليس شرا على طول الخط ، وأن « الكعب المنخفض » قد يضر بأناقة الأنثى — التى تجاوزت سن الحلم — وبقوامها . ويرفق حديثه برسوم تبين الضرر بشكل يكفى للاقتناع . ثم ينتهى إلى أن غايته هى « أن يبيع للعميلة الحذاء الملائم للمناسبة التى تعنى بالاستعداد لها » . وهناك اعلانات عامة ، لا يذكر فيها الأحذية اطلاقا ، كأن يرحب بمناسبة قومية معينة ، أو يدعو إلى الاكتتاب لغرض خيرى .. ولكن مجرد ذكر أسمه فى الاعلان ، كاف لاجتذاب العملاء إليه !

وإزاء نجاح إعلاناته ، دعته « التايمس » إلى أن يكتب عمودا ينشر مرتين فى الأسبوع ، فاذا بسوليفان يصبح من أحب الكتاب إلى القراء ، وقد أصبح عموده يترجم إلى اللغة الأسبانية كذلك .

وهكذا أصبح بائع الأحذية من اقطاب الاعلان ، ومن أشهر الكتاب .. ولم تشغله اية ناحية من هذا النشاط عن الناحيتين الآخريين !

سمكرى مرشح لأن يكون مليونيرا

ليس يكفى أن تجيد حرفتك وتتقن اداءها ، ولكن الأجدى أن تواصل الدراسة لتبتكر ما يميزك فى ميدانها .

من اعجب الحقائق ، ان اكبر مؤسسة تنتج أجهزة الرى الصغيرة فى امريكا ، هى شركة صغيرة متواضعة ، فى (هيكتستاون) ، بولاية نيوجيرسى . وقد كان مؤسسها ومديرها سمكريا (سباكا) فى أول امره . وكان قد أتم منهجا دراسيا وعمليا فى هذه الحرفة ، عندما فقد أبوه عمله فى شركة كان قد قضى فيها الشطر الأكبر من عمره .

وكان هذا الحادث كافيا لأن يوحى إلى «هارولد أومستاتر» — الذى كان فى السادسة عشرة ، إذ ذاك — بأن العمل لدى الغير لا يتصف بالاستقرار المطمئن ، ومن ثم فانه قرر أن لا يعمل أجيرا لأحد ، واخذ يفكر فى شىء مبتكر يمتاز به فى حرفته ، فهدته التجارب إلى صنع مرذاذ للمراحيض (سيفون) لمحطات البنزين التى ينتشر عدد كبير منها خارج المدن . وكان ابرز ما فى ابتكاره ، أنه صنع الجهاز من براميل الوقود القديمة . واستطاع بلباقته أن يحمل مدير فرع إقليمى لشركة « ستاندارد اويل — نيوجيرسى » ، على أن يسمح له بتجربة الجهاز فى إحدى المحطات التابعة له . وسرعان ما اغرى النجاح الشركة على أن تحاول شراء الاختراع. ولكن « أومستاتر » اصر على أن يحتفظ بحقوق الاختراع ، وكان ان حصل على عقود بصنع كميات كبيرة من الجهاز ، حتى ان ارباحه بلغت — فى ثلاث سنوات — ٥٥.٠٠٠ دولار .

وفى سنة ١٩٣٦ ، قبل ان يشرك معه فى الإنتاج تسعة من العمال ، وحول مؤسسته إلى شركة . ولكن ولاية (نيوجيرسى) كانت — فى تلك الاثناء — قد حصلت على كفايتها من الجهاز ،

فهبطت المبيعات هبوطا شنيعا ، اضطر معه الشاب إلى أن يبيع سيارتين ، وإلى أن يقترض من أحد المصارف .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية ، توقع « اومستاتر » أن شركته لن تستطيع الصمود ، فعمل على تصفيتها ، والتحق بادارة الهندسة الحكومية ، التابعة لسلاح المهندسين بالجيش الأمريكى . وسرعان ما لمع فيها ، إذ أنه لم يكن ليرفض الاضطلاع بأية مهمة يعهد بها إليه . وقد كلف مرة بأن يضع تصميما لشبكة لتصريف فضلات المراحيض فى معسكر كبير ، ولم يكن قد خبر مثل هذا العمل ، فما كان منه إلا أن حصل على اجازة لثلاثة ايام ، تفرغ فيها للدراسة ، ثم ابتكر الشبكة المنشودة بكافة ما كانت تحتاج إليه من آلات ومضخات !

وفى سنة ١٩٤٤ ، أعفى « اومستاتر » من عمله ، لعاهة كانت قد استفحلت عنده من الصغر ، فعاد إلى السوق ، ليجد أن مجال نشاطه السابق قد ضاق عن ذى قبل . وهنا تذكر أن فى ولاية (نيوجيرسى) مساحات شاسعة لا تستغل فى الزراعة لصعوبة الرى ، فخطر له أن من الممكن أن تستحيل إلى بساتين ، إذا ما توفرت آلات متنقلة لريها .. وقضى أعواما فى التجارب ، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٩ ، توصل إلى جهاز مثالى .. وفى الشهور الأربعة الأولى من إنتاجه ، استطاع ان يبيع ما قيمته ٢٥٠٫٠٠٠ دولار . وازدهر عمله منذ ذلك العهد ، حتى بلغ مجموع مبيعاته فى سنة ١٩٥٢ وحدها اربعة ملايين من الدولارات !



من خفايا النفوس

الباحث عن الفشل!

تجربة من صميم الواقع، نقلها الكاتب الأمريكي "جوزيف أنتونى" عن سجلات الأخصائى النفسانى "الدكتور لويس مونجمرى"

الستائر الخفية المسدلة على النفس !

كان « جرانت فرازيير » شـابا ، اوتى كل مقومات النجاح .. وكان يدرك انه يستطيع أن يبز أقرانه ــ إذا شاء ــ بل أنه تفوق على كبار المهندسين المعروفين فى امريكا ، فى مسابقة قومية .. ولكنه كان يؤثر لنفسـه الفشل مختارا ، وكان يشكو عدة علل وأمراض حـار الأطباء فى أمرها ، دون أن يعثروا لهـا على مصدر . وأخيرا ، استطاع المحلل النفسانى أن يسـاعده على رفع الستائر الخفية المسدلة على نفسه ، فتمكن من أن يرى حقيقة ما كان يعانى !

أنه درس يقدمه للآباء والأمهات ــ ولكل يائس خائر الهمة فى الحياة ــ الكاتب الأمريكى « جوزيف انتونى » ، عن الحالات النفسية التى عرضت للمحلل النفسـانى الكبير « لويس مونجمرى » .

أمراض لا مصدر لهـا

بدأت قصت « جرانت فرازيير » حين اتصل طبيب باحدى مدن الغرب الأوسط الأمريكى ، بالمحلل النفسانى « دكتور لويس مونجمرى » ، قائلا : « اننى احيل عليك مريضا ، هو فى الواقع مجموعة من الأوجاع والآلام التى ليس لها أى مبرر عضوى اطلاقا ! » .. وقبل أن يصل المريض إلى الدكتور مونجمرى ، كان هـذا قد حصـل على موجز واف عن تاريخ حياة المريض :

ففى سن السادسـة والعشرين ، كان « فرازيير » مهندسا معماريا متعطلا، إذ طرد طردا من العمل الذى تولاه مذ تخرج فى الجامعة . ولكنه ما لبث أن شحذ مهارته ، فى مسابقة عامة لرسم تصميم مبنى لشركة كبيرة ، كانت جائزتها أربعين الفا من الدولارات ، وكان الفوز فيها كفيلا بأن يرفع من شأن المشترك ، إذ كان المتسابقون من المع نجوم الهندسة المعمارية فى أمريكا بأسرها .

وقدر لفرازيير أن يكون الفائز ، فسرعان ما اتخذ لنفسـه مكتبـا كبيرا فى مدينتـه ، واستخدم عـددا من الرسامين الهندسيين . وانهالت عليه العمليات . وكان من المحتمل أن يغدو من أشـهر المهندسين ، لولا أنه أصـبح يميـل إلى الفشل !.. فكان يعكف شهورا على اعداد التصميمات ، حتى إذا استكملت رسومها ، عدل عنها ، وقال أنها غير جديرة بأن تقدم للعملاء ، مما كان يذهل مستخدميه ، إذ كانـوا يوقنون من أنها من أروع الأعمال الهندسية !.. وكانوا يحلفون عليه بالرجاء ، فيثور غاضـبا عليهم ، ويعتذر إلى العمـلاء بأن التصميمات لم ترق إلى المستوى الذى يرتضيه لنفسه . فاذا رغب بعضهم فى أن يلقى عليها نظرة ، ثار فى وجهه .. فمـا لبث أن صفى أعماله ، وسرح موظفيه ، وأصبح يعيش على عمليات ثانوية يأخذها من بعض الشركات الهندسية !

وكان طيلة هذه الاثناء يشعر بأنه يعانى شيئا ما ، أوحت إليه الظواهر بأنه كان مرضا بدنيا . فقد كان يشعر بنوبات من الصداع ، وبالتهابات فى الجيـوب الأنفيـة ، وبآلام فى

الصدر توحى إليه باختلال فى القلب . ومن ثم اخذ يتنقل من طبيب إلى آخر ، ولكن احدا منهم لم يجد ما يجزم بأى مرض بدنى .

السكين تثير اضطرابه وخوفه

وكانت عشر سنوات قد انقضت على نجاحه الرائع ، يوم دخل عيادة الدكتور مونجمرى ، فاذا به شاب فى السادسة والثلاثين ، بديع القامة ، انيق الملبس ، ذو طلعة توحى بالنفوذ والسلطان . ولكن عينيه كانتا ترسلان نظرات شاردة إلى افق مجهول .. وقدم نفسه إلى المحلل النفسانى وكانه رجل سئم كل شىء . القى بنفسه فى احد المقاعد ، وقال بلهجة خالية من اية عاطفة او انفعال :

— اننى فى موقف يكاد يسلمنى إلى الجنون .. فمنذ امد طويل ، وانا اعانى الجحيم من التهاب الجيوب ، ومن اوجاع عنيفة فى الصدر ، ومن صداع فظيع .. ويزعم الأطباء ان ليس بى اى داء عضوى !

وجال ببصره فى الحجرة ، وكانه يبحث عن عدو مختف ، ثم قال : « ولعل هذا هو السبب فى اننى لم انبئهم باسوأ متاعبى جميعا ! » . ولكنه لم يقو على حمل نفسه على الإفضاء به ، فراح يتحدث عن رحلته إلى نيويورك ، حتى لمح المحلل النفسانى يلقى نظرة على ساعته ، فاستجمع جراته وساله : « هل سمعت ما هو اسخف من أن يخاف رجل مكتمل النمو من سكين ؟.. سكين عادية ، مما يستعمل على المائدة .. او اى شىء ذى نصل يقطع او يخز .. ان مجرد رؤية السكين

يوقع الخوف والاضطراب بنفسى احيانا ، فانتحل اية حجة لمغادرة المكان ! » .

— قلت « احيانا » ، فهل تقصد أن هذا الخوف غير دائم؟

— اجل ، وهذا اعجب ما فى الأمر .. وهو لا يواتينى إلا حين اكون مع ابوى واخوى ، ولكننى لم اصارحهم قط به ، والا ظنونى معتوها !.. فاذا ما رايت سكينا — وانا معهم — تسارعت دقات قلبى فى عنف ، وداخلنى شعور لا سبيل إلى وصفه .. شعور مبهم بأن ثمة شيئا رهيبا يوشك ان يطبق على ، حتى اننى لم اشاطرهم المائدة منذ ثلاث سنوات . لا بد لى من علاج لهذا الأمر ، والا جننت .. بل إن هناك من يعتقد اننى جننت فعلا . لقد ذهبت إلى اخى « جيم » وذكرت له بأننى حزمت أمرى على ان استعين بطبيب نفسانى ، فلم يبد أتفه دهشة ، بل سالنى عما يلزمنى من نقود !

وإذ سال الدكتور مونجمرى عن الوقت الذى يستغرقه العلاج ، غاظه ان يجيبه هذا بأن الوقت يتوقف على المريض نفسه ، وعلى مدى تعاونه . ولكنه ما لبث ان كبح غضبه وتساءل عن اسباب خوفه من السكين ، فأجابه المحلل النفسانى : « هذا ما سوف نكشفه بكثير من الأسئلة ! » . ومرة أخرى ، انفجر ساخطا .. كان ككل مريض عصبى ، يحاول ان يتخلص مما يثيره ، دون تغلغل وراء مصدره !

عقدة الأخ الأوسط

وفى الجلسة الأولى ، ساله المحلل ان يصوغ اية افكار او آراء او مشاعر تخالجه ، فى كلمات ، دون ان يحاول كتمان

شىء منها ، أو انتقادها ، أو تقدير اهميتهــا أو تفاهتها .. ومرت الدقائق تباعا وهو صامت ، فقد كان إرسال الكلام على عواهنه مهمة اشق مما تصور ، لأن عقله الباطن كان يفرض رقابة جائرة عليه .. ولكنه ما لبث ــ بعــد دقائق عديدة ، ان قال وكانه يملى رسالة تجارية على ســكرتيرة : « اول ما اذكره فى الحياة ، حفلة اقيمت لأخى الأصغر « جورج » فى عيد ميلاده الثانى . وكنت إذ ذاك فى الخامسة من عمرى .. وكانت الأمهات اللائى اقبلن على دارنا لا يعرننى انتباها ، وان رحن يطرين « جورج » وجماله ولطفه .. وشعرت بحيرة ، والم ، وكانهن كن ينتزعن منى شيئا من حقى ، فوقفت منزويا فى احد الأركان ، متمنيا ان اكون جميلا محبوبا ، حتى يكترث بى الناس !.. واحسست بأن ثمة عيبا يشيننى ، وإلا لما ظن الناس ــ لا سيما ابى وامى ــ اننى لا استحق ان يحفلوا بى.. ولكنى لا ادرى ، بأى حق الوهم .. لقد كانت الحفلة تكريما لعيد ميلاد جورج ، كما انه لم يكن فى وسع ابى وامى ان يقسرا الناس على ان يعجبوا بى ! » .

وكان من الخداع أن يعتبر هذا الحديث حرا ، إذ كان عقله ــ وهو فى السادسة والثلاثين ــ يطفى على ذكريات طفولته وآرائه عنها ، ولكنه كشف ــ رغم ذلك ــ عن مأساة من اكثر المآسى شيوعا .. مأساة اخفاق الطفل فى ان يحظى بنصيبه الطبيعى من اهتمام اهله !.. فلقد كان جرانت « مضيعا » بين شقيقين ، احدهما «جيم »ــ وكان يكبره باربع سنوات ــ وثانيهما « جورج » . وكان الأول موضــع اعجاب أبويه ،

ــ لجماله الملائكى ــ فى حين أن الثانى كان مثالا للذكاء فى نظر والديه ، لا سيما الأب .. وكان الاثنـــان يستأثران باهتمام الأبوين ، ممــا أوحى إلى « جــرانت » بأنه غير محبــوب ولا مرغوب !

يتعمد ان يحصل على درجات هزيلة !

واخذ يروى ذكرياته عن ذلك ، ولكنه كان ــ فى كل مرة ــ يعود فيلتمس الاعذار لوالديه ، كأن يقول : « .. على أن ابى كان جم المشاغل ، فهو رب أسرة لا يدخر وسعا فى كســب المال لأسرته ! » .. وهكذا كان يبدو فى مظهر الطفل المتألم ، المحتاج إلى العطف والتقدير ، ثم لا يلبث أن يرتد إلى مظهــر الرجل المكتمل النمو ، الواسع الأفق ، المنصف !

وكان مما رواه : « لم اكن اجد عناء فى الحصول على اعلى الدرجات فى المدرسة ، حين اريد . وكنت ــ فى بادىء الأمر ــ اهرع إلى والدى بتقارير المدرسة ، وارتقب ان يطرى نبوغى، ولكن .. لابد أنه كان يضيق بى ، وكان لا يفتــأ يقــول إن « جيم » ظفر بدرجات افضل . بل انه كان يقول ذلك دون ان يكون قد اطلع على درجــاتى !.. لذلك لم البث ان تعمدت الكف عن الحصول على درجات عالية ، وكنت اشعر بارتياح إلى ذلك !.. بل اننى تعمدت فى امتحانى النهائى ــ فى المرحلة الأولى من التعليم ــ أن أجيب خطأ ، حتى أننى نجحت بنسبة هزيلة . وفى هذه المرة ، كان أبى على حق فى أن يقارن بين درجاتى ودرجات « جيم » . وكان مستاء ، ولكنه كان هادئا ،

حتى أننى دهشت وسألته : « أو لن تضربنى ؟ » .. ولكنه هز كتفيه قائلا ان لا سبيل هناك إلى دفع المعرفة فى مخ أصم ! » .

وظل « جرانت » ستة اشهر يبدى ادلة على عدائه لأبويه واخويه ، دون أن يبدى أتفه اشارة عن أنه كان على بينة من شعوره هذا . ولعل القارىء يتساءل : كيف اغفل المحلل النفسانى ان يبين له ذلك ؟.. والجواب هو أن المشاعر المكبوتة يجب أن تنطلق أولا — مرات ، وليس مرة واحدة — قبل أن يتقبلها المحلل كحقيقة واقعة . ولقد كان « جرانت » يضيق أحيانا ببطء تقدمه فى العلاج النفسى ، ولكنه كان يطيل ويراوغ ، لأنه كان يخشى الحقيقة ، دون أن يفطن .. وكان يثور على المحلل ، لبطء التقدم ، ولكن الفترات بين هذه الثورات كانت تتباعد باطراد ، إذ بدأ « جرانت » يدرك ان المحلل كان يفهمه ، ويترفق به إذ يحتمل ثوراته .. وكان هذا — فى حد ذاته — تقدما بالغ الأهمية ، فما ان يطمئن المريض العصبى إلى معالجه ، حتى تبدأ المشاعر الدفينة فى التكشف خلال مسلكه اليومى نحو الطبيب .. وهذه إحدى الطرق التى تستدرج المريض — دون أن يشعر — إلى أن يبرز خلال الستائر الخفية المسدلة على نفسيته وعقله !

اب ضيق الافق

وانقطعت الجلسات عشرة أيام ، بعد انقضاء الأشهر الستة ، إذ رحل « جرانت » لزيارة أهله . فلما عاد ، ذكر انه استطاع أن يتناول وجبتين مع الأسرة دون أن يشعر باضطراب

أو انفعال . لكنه كان قد بدأ يتعرض لأولى آلامه النفسية .. كانت أوجاعه قد بدأت تتخلى عن مظاهرها البدنية ، التى كانت العلل النفسية تتوارى خلفها . وكان من أعراض ذلك ، أن ازداد غلظة وخشونة مع المحلل ، حتى كشف له هذا عن حقيقة شعوره ، قائلا : « لقد عدت من رحلتك بشعور عدائى نحوى ، فتعال نبحث عن السبب ! » .

وأشاح جرانت عنه فى استنكار ، ولكنه ما لبث أن قال مفكرا : « أظننى عانيت من هذا الشعور الذى أظهره نحوك ، ولكنه — فى الواقع — كان نحو أخى « جيم » ، فقد زرته قبل عودتى فوجدته .. غير حافل بى ، بعض الشىء ! » . فقال المحلل : « ولكنك اعتدت أن تقول أنه كان لطيفا معك ، فهل تغير فى هذه المرة ؟ » .

— لا .. بل أظننى كنت سيىء المزاج .

— وهل كنت تقرننى ، فى ذهنك ، بأخيك « جيم » ؟

— أجل ، ولكن هذا جزء من الصورة .. اننى أصورك لنفسى وكأنك أبى وأخى وقد مزجا فى قلب واحد !

— ولكنك قلت مرارا إن أباك كان كريما معك .. فهل تأبى الكرم ؟

وحطمت مشاعره الحقيقية الحواجز — لأول مرة — فاعتدل فى جلسته ، وصاح: « لست أريد أن يكون أبى كريما معى !.. إنه مجرد آلة تدر نقودا ، فلم يؤت قبسا من الخيال أو الشعور .. انه لا يبدى اعتبارا لأى أمر لا يتمشى مع افقه

الضيق ، فلابد من ان تكون رجل أعمال أو صاحب مصرف لكى يقدرك ! ولن انسى ما فعله حين انبأته — لأول مرة — اننى سأدرس الهندسة المعمارية .. ما كان ليبدى استهجانا وازدراء اكثر ، لو اننى قلت له اننى ساعزف الموسيقى فى ماخور ! ».

الأبنة التى كانت منشودة !

وتحطمت الحواجز مرة اخرى ، حين راى منظرا طبيعيا يوحى بالهدوء والسكينة ، إذ قال : « ان هذا المنظر اكثر دعة وسلاما من العالم باسره ! » . وساله المحلل إن كان يعنى بـ « العالم » أسرته ، فقال يا إلهى !.. يا للشجارات التى كانت تدور بين امى وابى !.. لست اتذكر اننى رايت ابى يبدى عطفا نحو امى يوما ، بل اخال انه دائما يصيح ويصخب . وقد اعتدت ان ارثى لأمى ، لانها كانت دافئة العواطف دائما .. وإن لم تولنى شيئا من هذا الدفء !.. كانت ترهق نفسها فى سبيل ارضاء ابى ، سواء كانا على وئام او على شقاق . وكنت اغتاظ لذلك ، لانه اشبه بمداهنة الديكتاتور .. وكنت اجن احيانا فاتمنى ان اركل ابى ، لا سيما حين كان يعاقب اخى جورج ! » .

— ولكنك كنت ترغب دائما فى إيذاء جورج ؟

وبدا التردد على وجهه ، وفكر قليلا ، ثم قال : « كنت اخلو بجورج أحيانا ، وهو صغير ، فكنت اقسو عليه .. لقد اخبرتك يا دكتور باننى شرير ! » . ولاذ بالصمت .. كان يضرب فى مجاهل المشاعر المكبوتة التى طال نسيانها ، ثم قال نجاة : إنه سمع امه يوما تقول لصديقة لها ، إنها وزوجها كانا

يتمنيان — قبل مولده هو — أن يرزقا بابنة ، وانها استاءت جدا حين جاء « جرانت » ولدا . واردف قائلا : « وشعرت باننى أهوى من حالق . وتمنيت لو اصبحت — بمعجزة ما — بنتا ! » .. واخذت تراودنى بعض أحلام اليقظة الغريبة ، فكنت اتصورنى طفلة ، وقد ضمتنى امى إلى صدرها ، والقمتنى ثديها . ثم اقبل ابى عليها صارخا : « كيف تجسرين على ذلك .. إنها ابنتى انا ! » .

— لقد كنت تشبع ، فى الخيال ، امنية فى نفسك .. ان يحبك ابوك . انك تتوق إلى ان توثق صلتك به !

وسخر « جرانت » من هذا التفسير بقحة ، مؤكدا انه كان يكره اباه ، فقال المحلل : « او ليس من المحتمل ان تكون كراهيتك إياه ، تمويها لستر ظمئك إلى توثق صلتك به » .

— انك تهذى ، وحسبك ستقول لى — فى اللحظة التالية — اننى ذو شخصية انثوية ، لاننى تمثلت نفسى فى الخيال انثى !

وبين له المحلل النفسانى ان ليست هناك رجولة مطلقة ، ولا انوثة مطلقة ، فاخلد الشاب إلى الوجوم فترة ، ثم قال : « اذكر اننى كنت احب — فى صغرى — ان اكون قريبا من ابى ، وكنت اعنى بمطالبه البسيطة ، كما تفعل أية فتاة صغيرة .. ولم يكن فى اسرتنا فتيات ! » . وعاد إلى الصمت ثانية ، ثم قال وكانه يستانف افكاره : « وكنت العب مع كثير من الفتيات ، كما كنت العب مع الصبية .. واذكر فتاة بالذات ، كانت فى الرابعة من عمرها حين كنت فى الخامسة

من عمرى .. وعندما سمعت ان أمى كانت تتمنى لو أننى كنت بنتا ، تمنيت ان اكون « انيتا » .. تلك الفتـــاة الصغيرة . وظللت زمنا اراقبها ، واقلدها فى البيت .. وفى مرة ، ذكرت لى ــ ونحن نلعب ــ انها تريد أن تتبــول ، فصحبتها إلى مكان خلف البيت .. » .

« الصافرة » المفقودة !

ولدهشته تبين ان الفتاة لم تؤت جهازا للتبول كذلك الذى اوتيه هو ، فذهب إلى امه وذكر لهـــا الأمر مبهوتا فاذا بهـــا تضربه ، وتؤنبه على استراقه النظر إلى الفتيات . وخيـــل إليه ان امه لم تفهم مقصده ، فعاد يذكر لها ان « انيتــــا » لم تؤت « صافرة » ــ كما عودته امه أن يسمى عضو التذكير ــ وانه كان يريد أن يعرف كيف فقدت صافرتها . فما كان من امه ، إلا ان أمرته بأن يكف عن الأسئلة السخيفة ، قائلة إنه سيفقد هو الآخر « صافرته » إذا لم يكف عن أن يكون ولدا فاسدا !.. وجـــزع الطفل . واشتد جزعه حين انذره ابوه بانه خليق بأن يفقد « الصـــــافرة » إذا لم يكف عن الاهتمـــام بها !.. ولم يكف « جرانت » عن الاهتمام ، وهويفكر فى أنه لن يلبث أن يجد نفسه مثل « انيتا » !

وكثيرا ما تحدث الأدويـــة نوعـــا من الحســـاسية ، أو الاضطراب ، قبل أن تشرع فى تأثيرها الشفائى .. وكذلك الحقيقة ! فبعـــد أســـابيع قلائل ، ســـأل جرانت الطبيب النفسانى : « لقد فكرت فى أن بوسعى أن أمارس عملا ، أثناء فترة العلاج . ولمـــاذا لم تنصحنى بذلك ؟ » .

ــ كما كان أبوك وأمك خليقين بأن يفعلا ؟

وانطوى على نفسه لحظات ، ثم قال : « إن حديثك يذكرنى بعمل سخيف ارتكبته وأنا فى الخامسة عشرة ! » . كانت أمه قد رأت أن تشجعه على الخروج مع ابنة إحدى صديقاتهـــا إلى إحدى الحفلات . وكان راغبا فى ذلك ، ولكنه قبل أن يصل إلى بيت الفتاة ، تذكر أن أمه « امرته » بالخروج معهـــا ، فنكص على عقبيه ، وذهب إلى السينما . وعندما وصل إلى بيته ، كانت أم الفتاة تسأل ــ تليفونيا ــ عن سر عدم ذهابه إليهـــا ، وسمع أمه تعتـــذر بانه أصيب بمرض فجائى . ومع شعوره بأن تصرفه كان نابيا ، فانه تألم حين سمع أمه تكذب!

وتبدى الانفعال عليه بعد تلك القصة .. كانت ثمة حقيقة تبحث عن منفذ !

اكاذيب الآباء والأمهات

وفى اليوم التالى ، ذكر للمحلل انه حصل على عمل فى إحدى البنايات ــ كعامل عادى ــ دون أن يكشف شيئا عن مؤهلاته .. وساله المحلل عما دعاه إلى ذلك ، فقال : « اظننى كنت احاول ان اثبت شيئا ما ، ولكنى الآن لا ادرى ما هو هـــذا الشىء ! » .

ــ لعلك لا تزال تحاول ان تثبت أنك ولد صالح ، مجتهد ، يستحق التشجيع !

واجفل جرانت .. ولكنه بعد أيام حصل على عمل كرسام هندسى ، فى شركة صغيرة .. وقال بعد ذلك : « يبدو أن

الأمنية الوحيدة التى خالجتنى فى حياتى ، هى أن ارسم البنايات ! » .. فلقد شاهد — وهو فى السابعة من عمره — رئيسا للعمال ، يقف ممسكا ببعض الرسوم ، مدليا بالتعليمات إلى العمال ، فى بقعة كانت تقام بها بناية كبيرة ، بالقرب من بيت أسرته .. وكان الرجل طيبا ، تلطف إليه ، واطلعه على الرسوم . ولكن الأسرة فطنت إلى تأخر « جرانت » عن موعد العودة من المدرسة ، فلما علم ابوه السبب ، ثار عليه ، وذكر له ان البناية الجديدة ستقضى على هدوء المنطقة .. ولكنه ادرك أن هذا لم يكن السبب الحقيقى الذى امر من أجله بالابتعاد عن البناية . ولم يصدع بالأمر ، ولكنه راح يكذب ليبرر غيابه .

وأردف « جرانت » قائلا : « ومع ذلك ، فقد اعتادت أمى أن تكذب دائما ! » .. وإذ سأله المحلل عما دعاه إلى هذا الظن ، جمد فى مكانه وقد شرد فكره ، فترة طويلة . ثم اخذ يبكى فجأة .. كان الرجل الناضج يعيش فى دنيا الصبى الخائف ، الحائر الذى كانه إذ ذاك !.. حتى إذا انفثأ انفعاله ، قال : « كنت اظن أن ذاكرتى خلو من اى شىء عن الفترة التى سبقت بلوغى الخامسة .. ولكن ، لابد اننى كنت فى الثالثة ، حين رايت أمى مع رجل غريب . كان يجردها من ثيابها !.. ولقد ارتبط هذا فى ذهنى دائما ، بالاعتقاد بأن أمى لم تكن صادقة . ولكن كيف تسنى لى — فى تلك السن — أن أعرف أن أمى كانت ترتكب ذنبا ؟! » .

وهبطت الستر الخفية على ذاكرته .. ولكنها انحسرت بعد

ايام ، فتذكر أن خادمة فى البيت ، ذكرت لأبيه شيئا — فى اليوم الذى كانت فيه أمه مع الغريب — فثار الرجل واهتاج وتشاجر مع زوجته .. « لقد خلت انه سيهدم البيت ، فرحت أبكى وأرتجف فرقا » . وهنا قال له المحلل : « أتتذكر كيف كنت تتصور انك بنت ، وأن اباك كان ينتزعك من أمك وهو مهتاج ؟.. إن خيالك كان صورة ناقصة للحقيقة ! » .

« ثالوث » فى الغرام

وكان « جرانت » يضطرب عقب كل مرة ينفذ فيها إلى اعماق نفسه ، ولكن مقدرته على مواجهة الحقائق اخذت تزداد ، إذ كان المحلل النفسانى يحاول أن يكون مجرد مساعد على الشفاء ، فلم يكن ينتقد أى شىء .. بل إنه كان يحاول ان يشاطر المريض آلامه ، بدلا من ان يرثى له ويعطف عليه . وككل رجل ، تحدث « جرانت » عن مغامراته الجنسية ، من حين إلى آخر .. وفى أحد الأيام ، قال إنه كان يميل إلى الفتيات اللائى يحملنه على شىء من الاحترام نحوهن ، وانه كان يحرص دائما على أن تكون له صديقتان ، فى آن واحد .. « واحدة من النوع المهذب ، والأخرى من النساء المتبذلات اللائى تضاجع الواحدة منهن الشاب منذ اول لقاء ، وتقابله اربع او خمس مرات ، ثم تبحث عن سواه .. وهذه اعتبرها بمثابة ضمان وقائى . فان المرء يكون عرضة لأن يتدله فى الغرام ، إذا اقتصر على امراة واحدة » !

وكان هذا «الثالوث» امرا غير عادى .. فبالنسبة للرجل ،

من المألوف ان يكون الثالوث مؤلفا من الرجل والحبيبة وغريم ينافسه .. أما استبدال الأخير بانثى ، فهذه حال جنسية غير شائعة . وراح المحلل يلاحق « جرانت » بالأسئلة ، حتى أيقن أنه كان يتهرب — دون أن يفطن — من حيقية ما . ومن ثم تحول به عن هذه الناحية ، وسأله أن يحدثه عن أول مغامرة جنسية له .

كان إذ ذاك فى التاسعة عشرة ، وكانت أمه قد استضافت بعض الصديقات وازواجهن . وكانت بينهن صديقة لم يأت زوجها ، فسألته فى نهاية الحفلة ان يقلها — فى سيارة الأسرة — إلى دارها . واتصل بينهما الحديث أثناء الطريق ، فأبدت اهتماما بدراسته ، ثم دعته إلى دارها . وكانت تعانى وقتا عصيبا ، إذ كانت متزوجة من رجل سكير ، لم يكن يحفل بها .. ومن ثم أخذ « جرانت » يدعوها إلى النزهات ، ويتردد على مسكنها .. وفى إحدى الليالى ، انتقلا بصداقتهما إلى السرير . وظلا كذلك ثلاثة أشهر أو أربعة ، إلى أن قدر له أن يعرف أنها كانت عشيقة لرجل آخر . واعترفت له بأنها كانت ذات غريزة جنسية نهمة ، حتى أنها اعتادت أن تكون خليلة لثلاثة رجال أو أربعة ، فى آن واحد .. وأدرك أنها من « المتبذلات » ، فلم يعد راغبا فى أن يراها ، وشعر بأن كرامته قد أصيبت بجرح عميق !

وسكت « جرانت » برهة ثم ضحك . فلما سأله المحلل عن سر ضحكه ، قال : « أضحك لبلاهتى ، إذ استأت من ذلك .. وفى اليوم التالى ، التقيت بفتاة — كنت قد عرفتها

من قبل — تدعى « كارلا » ، فبدأت معها علاقة غرامية ، ولكننى لم أكف عن مقابلة « اميلى » .. المرأة الأخرى . كانت هذه هى المتبذلة ، وكانت « كارلا » المرأة المهذبة ! » .

— وماذا تعنى بالمرأة المهذبة ؟

— تلك التى لا تكون عشيقة لأكثر من رجل واحد .. وكانت ضمانا وقائيا لى ، إذ أحسبنى كنت موشكا أن أتدله فى هوى اميلى ، لولا أن اكتشفت أنها كانت متبذلة !

واوضح « جرانت » أنه فى علاقاته مع « المتبذلات » ومع « المهذبات » ، لم يكن يصدر عن حب حقيقى ، بل أنه لم يكن يشعر باحترام نحو النوعين معا !.. وإذا كان ثمة انفعال قد تبدى منه أثناء حديثه عن مغامراته ، فان هذا الانفعال كان عندما ذكر كيف أن شقيقه « جورج » سلبه بعض صديقاته ، فقد كان جميلا .. على أن هذا لم يمنع « جرانت » من أن يستمر فى تقديم صديقاته إليه . وكان يبدى استنكارا وغضبا إزاء خيانة أخيه لثقته . ولكنه كان — فى كل مرة — يسرع إلى البحث عن عشيقة جديدة ، لأنه كان يشعر بأنه يفقد توازنه ، إذا اقتصر على عشيقة واحدة .. كان يشعر كأن ثمة شيئا ينقصه . فلما سأله المحلل عن ذلك الشىء ، حاول المراوغة ، ثم قال بلهجة متعجلة : « كنت إذا جامعت فتاة مهذبة ، أتصور أن ضجيعتى هى المتبذلة .. ومع المتبذلة كنت أتصورنى مع المهذبة ! » .

واعترف بعد ذلك بأنه كان يعجز عن مضاجعة أية امرأة ، إذا لم تكن له عشيقة أخرى — من النوع الآخر — فى نفس الوقت !

علاقته بأخويه تنعكس على عشيقاته !

وبدأت الانفعالات العميقة — المتصلة بالحقائق — تتبدى فى أحاديث « جرانت » ، وهــو يزداد اقترابا من التحرر من الحذر والتحفظ . وفى ذات يوم ، روى للمحلل انه كان يرى أحيانا — فى أحلام اليقظة — ان اثنتين من عشيقاته — احداهما متبذلة والأخرى مهذبة — قد التقتا ، فتشاجرتا .. وفجاة ، ابتسمت كل منهما للأخرى ، وتأبطت ذراعها ، ثم سارتا معا ، لتتضاجعا ، وتركتـاه .. فشعر بأن كـلا منهمـا انصرفت باهتمامها عنه إلى الأخرى ، وانه « مضيع » بين الاثنتين .. عبن التعبير الذى استخدمه ليعبر عن شــعوره بموقفه بين شقيقيه !

ومن هذه النقطة ، استدرجه المحلل حتى ذكر بانه اعتاد ان يحب كلا من اخويه وان يكرهه — فى الوقت ذاته — إذا ما وجد معه على حـدة . وكذلك كانت حاله إذا ما خلا إلى احـدى عشيقاته : يحبها ويكرهها معـا !

— افكان ذلك لأنك كنت تتمثل نفسك — كلما خلوت إلى إحدى عشيقتيك — فى صورة العشيقة الأخرى ، وكنت تخال انها تشعر بذلك ؟

— انني لم ابغ أن اكون امراة ، على اية حال !

— بل تمنيت مرة ، وانت طفل .. حين سمعت امك تقول انها كانت ترجو لو انك كنت بنتـا !.. ان تصـورك نفسك فتاة ، كان نوعا من الدفاع إزاء نبذ ابويك اياك ، وقد عدت إلى هذا الدفاع ، وانت كبير !

— تقصد .. عندما اكتشفت أن اميلى كانت متبذلة ؟

— بل عندما اكتشفت أنها لم تكن تحبك .

وفى كل ما رواه « جرانت » عن غرامياته ، كان ثمة نضال لا يهن ، لاثبات رجولته .. وكان هذا دفاعا — دون أن يفطن — ضد ميله إلى أن يكون أنثى !.. كانت العشيقة « المهذبة » تمثل رغبته كرجل ، وكانت العشيقة « المتبذلة » هى الأداة التى يدفع بها عن نفسه شعوره بالميـل الانثـوى ، ويثبت رجولته . وكان فى الحالتين يمثل علاقاته بأخويه ، فقـد كان « جيم » مهذبا ، ملائكيا .. وكان « جورج » متبذلا ، يسلبه عشيقاته !

الحاجة إلى العقاب تدفعه للفشل

ولكن المسالة اعمق من هذا كله .. فنحن حين نشعر من انفسنا بميل لا يقره المجتمع ، نجـد انفســنا بحاجة إلى أن نتناساه ، اى اننا نلقى به إلى الوعى اللاشعورى . ولكنــه يظل نشيطا هناك ، ليخلق لنا اغرب الوان الجوع الخفى ، الا وهو : الحاجة إلى العقاب !

ذلك لأن تعاليم الأبوين ، فى طفولتنا المبكرة ، تخلق فينـا « الضمير اللاشعورى » ، الذى يعاقبنا — طيلة حياتنا — عن اى خروج عن هذه التعاليم . وقد كان هـذا الضـمير يلوم « جرانت » دائما على كراهيته لأبويه ، وعجزه عن ان يحب احدا عدا نفســه ، وانحرافات شـعوره الجنسى . وكانت حاجته إلى التفكير تتمثل فى الوان الصداع والأوجاع التى كان

يستشعرها . كما أنها سيطرت على منطقه ، وأملت عليه أمورا بعيدة عن المنطق ، من شأنها أن تحقر من شأنه ، وأن تلحق به الفشل ! وكان هذا هو السبب فى أنه ظل يعرف « جورج » بعشيقاته بعد أن تبين أنه كان يسلبه اياهن . كما كان من أسباب تعمده أن يخطىء فى المدرسة وأن يحصل على درجات مزرية .. ثم كان السبب الأوحد فى فقدانه عمله الأول . فقد كان مدير الشركة راضيا عنه ، ولكنه طرده حين أثار ضجة يوما حول اجراء تافه من الإجراءات المتبعة فى الشركة .

وكان لابد من دافع عاطفى قوى ، يغالب الحاجة إلى العقاب لدى « جرانت » .. لقد كان يرى فى مدير الشركة صورة أخرى من والده ، فاشترك فى المسابقة الهندسية — بعد أن ظل فترة متعطلا — ليثبت لوالده مدى خطئه فى عدم تقدير كفاءته . وعندما فاز فى المسابقة ، أسرع يحمل النبأ إلى أبيه ، فما كان من الشيخ إلا أن قال : « آه لقد بلغت السن التى يجب أن تحظى فيها ببعض المجد .. ان لنا مركزا طيبا فى المدينة — على أية حال — فهلا تظن أن لهذا اثرا فى فوزك ؟ » .. والواقع ان المسابقة كانت عامة للولايات جميعا ، وكانت التصميمات تستعرض تحت أرقام سرية ، فلم يكن المحكمون يعرفون أسماء المتقدمين . ولكن « جرانت » لم ير داعيا لأن يشرح هذا لأبيه ، إذ عزز ما حدث خيبته المستمرة فى الظفر بتقدير من أبيه ، ومن هنا كانت النكسة التى أدت — فيما بعد — إلى انهيار المكتب الهندسى الذى كان قد أنشأه !

وظل المحلل يتحين الفرص .. وفى ذات يوم ، روى له « جرانت » كيف انه اضطر مرة إلى أن يطرد أحد مستخدمى مكتبه .. كان رساما هندسيا ، جاء يطلب إجازة ، والمكتب بأسره منهمك فى اعداد رسوم مشروع هام . فلما ذكره « جرانت » بهذا ، صارحه بأن لا قيمة لذلك ، لأنه كان موقنا من أن « جرانت » لن يقدم الرسوم .. كعادته !

وهنا ساله المحلل : « وهل كنت تعتزم تقديمها ؟ » . فأجاب : « ولماذا إذن كنت أرهق نفسى ، وأدفع مرتبات للمستخدمين ؟ » .. ومع ذلك ، فقد اعترف بأنه لم يقدم الرسوم . وكان « جرانت » مهتاجا وهو يذكر ذلك ، فقال له المحلل : « الا تظن أننى أهون من شأنك ، بما أدعوك إلى الكشف عنه ، كما كان يفعل والدك .. وكما فعل ذلك المستخدم حين صارحك مقدما بما كنت تخفيه عن نفسك ؟ » .

وكانت « مرحلة تحول » يوم روى « جرانت » للمحلل حلما رآه فى الليلة السابقة .. رأى أنه كان فى قارب ، وقد امتلأ نشاطا وقوة ، وأمسك بالمجدافين ، وراح يتربص بالأسماك ، كلما ظهرت واحدة ضربها على رأسها ، حتى ماتت جميعا . وإذ ذاك قال لنفسه : « هذه هى قوتى ! » ، ولكنه شعر فجأة بخوف طاغ لم يدر مأتاه !.. وراح المحلل يسوقه إلى تحليل الحلم بنفسه ، فسأله عن المعنى الذى يراه وراء التجديف .. وأجاب جرانت : « الانسياب فى الحياة » .

— وما الفكرة التى تخطر ببالك عنه ؟

ــ إنه مهمة شاقة .. لا سيما فيما يتعلق بصلاتى بالنساء .

ــ اتخشى ان يكتشفن فيك شيئا لا تحب ان يعرفنه ؟.. وهل يرجع هذا الخوف المبهم إلى طفولتك ؟.. وهل يزعجك التفكير فيه ، ولذلك تخشى ان تذكره بوضوح ، وتؤثر ان تنساه ؟

ــ الحق .. الحق اننى اشعر بالذعر ، إذ اخال ان الدنيا بأسرها ستكتشف إثمى المكتوم !

وشيئا فشيئا ، ذكر ان دفع المجداف فى الماء ، يوحى بحركة السكين حين تقطع . وإذ ذاك هتف : « تذكرت .. كنت فى الثانية عشرة من عمرى ، وقد وقفت أساعد امى فى المطبخ ، واجفف الأطباق وادوات المائدة ، حين دخل ابى .. وخيل إلى انه جاء ليراقبنى خلسة ، فشعرت بكراهية طاغية نحوه . وكانت فى يدى بعض سكاكين ، فوددت ان اضربه بواحدة منها . وفجأة ، وقعت السكاكين وتناثرت على الأرض !.. لقد نسيت هذا الحادث ، بل اردت ان لا اتذكره .. اردت ان اعتقد اننى كنت ابنا بارا ، رغم ماكنت القاه ! » .

وعلى هذا النسق ، فسر الأسماك التى قتلها ــ فى الحلم ــ بانها افراد اسرته ، وبانه كان يود ان يقتلهم . وإذ ذاك ، تجلى الألم على وجهه ، إذ كشف حقيقة شعوره .. فتولاه نوع من المغص والغثيان ، اعرف بأنه اعتاد ان يعانيه كلما تعرض لمازق !

الأحلام تكشف الانفعالات الدفينة

وتذكر ــ إذ ذاك ــ انه شعر ، بعد موقف ابيه من فوزه فى المسابقة ، بالآلام التى كان يعزوها إلى الجيوب الأنفية . وان هذه الآلام كانت تمتزج ــ كلما واتته فى مأزق ــ بشعور من الخوف المبهم ، وكأن ثمة خطرا يجب أن يقى نفسه منه . وهنا سأله المحلل : « اكان هذا يرتبط ــ فى طفولتك » بالخوف من أن تفقد صافرتك ؟ » . واضطرب إذ ذاك ، ثم تجلت عليه الدهشة وهتف : « اظن أن ثمة علاقة » .

وذكر انه ظن مرة انه فقد « صافرته » فكاد يجن ذعرا .. ورأى فى المنام ــ فى ليلة بعد ذلك ــ انه تسلل من فراشه ليلا ، ودلف إلى مخدع ابويه ممسكا بسكين ، فنهض ابوه واخذ السكين منه ، وإذ ذاك هرع من الحجرة ، فجرى ابوه وراءه .. وظل يجرى ويجرى ، ثم التفت خلفه ، فلم ير سوى سكين ضخمة تجرى وراءه !.. وظلت الذكريات تنبعث وتحيا ، وظل « جرانت » يزداد جراة على مواجهة الحقيقة . وبعد أن كان يخال ان أسرته كانت تجرى وراءه بسكين ، تبين انه كان يخشى السكين ، لأنه كان يخاف أن يجريها فى اهله .. وكان يخالط هذا الخوف خوف آخر .. الخوف من العقاب !

ولكن العلاج لم يكن قد اكتمل عند هذا الحد .. وفى ذات يوم ، ذكر « جرانت » للمحلل ، انه رأى فى الحلم انه اصطحب فتاة « مهذبة » إلى مرقص . وعندما بدا يستطيب صحبتها ، تذكر انه كان على موعد مع امراة أخرى ، وان هذا الموعد

انقضى منذ نصف ساعة . فاستأذن من صاحبته ، وأسرع إلى التليفون يعتذر للأخرى ، ولكنها صبت عليه جام غضبها .. وعندما عاد إلى زميلته فى المرقص ، شعر بنوبة من الغباء ، حملته على أن يصارحها بأمر المرأة الأخرى ، فاذا بها تثور عليه بدورها ، وتنصرف .

وقال المحلل : « لقد كنت صريحا أكثر مما كنت تدرك .. كنت تبغى — دون أن تفطن — أن تسىء إلى المرأتين ، لأن امرأة أخرى جرحت كرامتك . وكنت — فى الوقت ذاته — تسعى إلى أن تعاقب نفسك بخيبة جديدة .. تماما كما كنت تفعل إذ تقدم صديقاتك إلى أخيك جورج ! » .

ولم يعد جرانت يجفل من الحقيقة أو يتهرب منها . ولم يكن من السهل عليه أن يتخلى عن الشخصية المثالية التى كان يتصور نفسه فيها ، ليخطوا إلى الشخصية الواقعية . لذلك انقضت فترة قبل أن يفد إلى المحلل ليقول له : « لقد كان حرصى على الارتباط بعشيقتين فى آن واحد ، نوعا من السخف . ومن ثم تخليت عن إحدى صديقاتى ، وقررت أن اقتصر على واحدة » .. فلما ألفى المحلل صامتا ، صاح : « أليس لديك ما تقول ؟.. ظننتك ستهبط من برجك العاجى فتهنئنى ! » .

— إذن ، فقد أقدمت على هذا لترضينى .

— يا للعنة !.. إنك لتلوح كأبى .. إننى أكرهه ! دعنى أسألك : كيف يستطيع المرء أن يرضيك ؟

— بأن يتصرف كأى رجل ذكى ، ناضج ، فيفعل ما يرضيه هو أولا !

الحاجة إلى أب كامل !

وكانت تلك فترة عصيبة بالنسبة لجرانت . فلقد ألف مسلكه الخاطىء ، الذى يعتمد على عقاب النفس ، والعدوان الصبيانى . ولم يكن قد استكمل نضوجه العاطفى بعد . فألفى نفسه إزاء أسئلة لا حصر لها : هل كانت التقاليد الخلقية والاجتماعية — التى اعتاد أن يتجاهلها — سليمة ؟.. هل كان غريبا ، أو « غشيما » فى علاقاته بالنساء ؟.. هل كان بعيدا عن الانصاف فى علاقاته بأهله وبمن كانوا على صلات به ؟.. ومن ثم حاول « جرانت » أن يجعل من المحلل النفسانى مستشارا يوجهه فى كل خطوة ، ولكن المحلل كان يحرص على أن يدعه يمحص مبادئه ومقاييسه بنفسه ، وأن يقرر لنفسه مدى صلاحيتها أو خطلها . ومن ثم فقد اقتصر إرشاده على أن ينمى لديه المقدرة على أن يتبين حقيقة مشاعره ودوافعه ، حتى يستطيع أن يبنى قراراته على أسس واقعية .. ولم يلبث « جرانت » أن أبدى دهشته من أن علله وأوجاعه قد تلاشت تماما .

وبقيت العقدة النفسية الخاصة بالسكين ، فقد ظلت مبهمة إلى أن سافر إلى أهله ، واستطاع أن يجلس معهم إلى المائدة مرارا ، وهو مغتبط . وكان قد ذهب إليهم بأمل أن يغفر لهم ما كان ينقمه عليهم ، فاذا به يتبين أنه كان مصدر إيلام للكثيرين ، دون أن يشعر .. وبدلا من الصفح ، بدأ يتجه إلى التفاهم والفهم ! وعلى هدى هذا التحول ، بدأ

يكتشف آراء ، راح يرويها للمحلل تباعا عند عودته .. وجد أن العلاقة بين الرجل والمرأة خليقة بأن تكون مصدر سرور ، دون اضطرار إلى « الثالوث » !.. وأن الحب ليس مجرد سلع معينة تحاول المرأة أن تبيعها للرجل ، وإنما هو تجربة أكثر بهجة ومتعة !

وكانت آخر مشكلة هى : « الانتقال إلى الحال الطبيعية » .. كان « جرانت » يميـل إلى أن يعتبـر مقدرته على تبين حقيقة مشاعره ، موهبة منحه إياها المحلل النفسـانى ، فى حين انها كانت ثمرة جهاده الطويل فى البحث عن الحقيقة .. وكان من الضرورى ان يدرك ذلك . وفى طريقـه إلى هـذا الادراك ، تبين أن ما كان يبـدو منـه من مغـالاة فى الحب والكراهية والعناد والاعتراف بالجميل ، ليست سوى تصوير خيالى للرغبة التى كانت تراوده منذ الطفولة : الرغبة فى أب كامل العقل والحكمة ، كامل السلطان ، كامل الانصاف !

واليوم يعيش « جرانت » سعيدا ، كزوج ناجح ، وصاحب عمل موفق ، وأب يحـاول جاهـدا ان يجنب ابنـه العلل النفسية !



تجارب الماضى .. وراء انفعالاتنا وعللنا

مشكلة الكثيرين من أبناء عصرنا أنهم يعيشون حياة موزعة ، مزدوجة ، بعضها ظاهر ، واضح ، مفهوم .. وبعضها الآخر غامض ، لا تعرف له أسباب ، ولا يسبر له غور ، ولا تتضح له أهداف !

والواقع أن الحياة انعمت علينا منذ مولدنا بحس وبصيرة سليمين ، بيد أن الطفولة كثيرا ما تتعثر فى طريقها بالأشواك والأحجار، فاذا الشقاء يترك فى النفس طابعه الأليم ، حتى إذا اندملت الجروح القديمة ، بقيت آثارها غائرة فى الداخل .. فى الأعماق البعيدة عن الأعين .. ولكن حبنا للحياة ولأنفسنا ، يدفعنا إلى التغاضى عن كل ما يثير الألم ، فلا نتذكر بقدر الامكان سوى كل ما هو بهيج سار . أما التجارب المؤلمة ، فاننا نسمح للنسيان بأن يجر عليها ذيوله . غير أنه لا يعدمها إعداما تاما ، وإنما هو يخفيها عن وعينا ، ويحنطها ، لتظل محفوظة ، تتربص الفرصة السائحة لكى تطفو بآلامها القديمة إلى سطح الوعى .. إما سافرة بوجهها الحقيقى ، وإما متنكرة فى صورة رمزية .

وكتاب « لوسى فريمان » تجربة شخصية لها .. فهى قد عانت التواءات نفسية تمثلت لها على صورة مخاوف وهمية قاسية ، أفسدت حياتها الوجدانية ، ثم استقمت بدنها ، فاصطلحت عليها العلل العضوية التى اعيت نطس الأطباء ، إلى ان كشف التحليل النفسى عن حقيقة مخاوفها وأسبابها ، فتم لها الشفاء ..

الطب يعلن فشله ..

فشل الطب فى محو متاعبى وآلامى الفظيعة . فقد ظللت سنوات انتقل من طبيب إلى طبيب ، بغير طائل :

— نامى جيدا وكلى بشهية !

— ولكن شكواى هى بالضبط اننى لا أستطيع النوم ولا الأكل ...

— هاك اقراص منومة !

— وكيف أعالج الطعام ؟.. إن معدتى تنبذ كل لقمة ابتلعها !

— خذى هذه الحبوب قبل الأكل !

— وماذا عن الصداع الذى يحطم الدماغ ؟

— هذه البرشامات ستنفعك ..

ولكن الحبوب والأقراص والبرشام بكافة أنواعها ، لم تجد فى نفعا ، بل إنها زادت آلامى .. وقيل لى إن الحرب هى التى كانت تتلف أعصابى ، فيجب أن أستريح من عملى الصحفى بضعة اسابيع .. ولكن حالى لم تتحسن ، عندما ظفرت باجازتى ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها .. فكان لابد لى من تغيير طريقى والا هلكت !

وكان الطريق الجديد — الذى اتبعته — هو التحليل النفسى .. فقد طرقت باب التحليل بعد أن أصبحت عملية التنفس عندى مشقة مستمرة ، لم يفلح الاخصائيون فى

تخفيفها بالجراحات والغسيل .. وبعد أن اصبحت انــواع المغص والغثيان عذابا ملازما .

المريضة الأولى لطبيب نفسانى

وكنت المريضة الأولى للطبيب النفسانى ، بعد تسريحــه من خدمة الجيش فى اعقاب الحرب .. وذهبت إلى داره وانا أقاوم رغبتى فى النكوص ، حتى لقـد اقتضـانى ضغط زر الجرس المثبت على بابه جهدا عنيفا . وإذا به يفتح لى الباب بنفسه ، ويتجه إلى المدفــاة ، فيجلس فى مقعـده المريح ، ويتركنى أختار لنفسى الجلسة التى تحلو لى ، فوق الأريكة الوثيرة التى كنت اعلم أن المحللين يرقدون مرضاهم فوقها .. فلم يدعنى للرقاد ، وقد حمدت له — فى نفسى — هذا التصرف.

وانتظرت أن يتناول ورقة وقلما ، ثم يبدأ الاستجواب . ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، بل جلس ينتظـر ان اتكلم انا كما يحلو لى ، فاقول ما اريد ، وامسك ما لا أريد .. وفوق هذا كله ، فقد اكتشــفت انه لم يكن يســتخدم المرضات اطلاقا ، فتنفست الصعداء ، لأن منظر المرضات وحده كاف لترويعى !

واخيرا سالنى عما كنت أفكر فيه ، فقلت له :

— افكر فى سخافة ما انا مقدمة عليــه . فما اسخف أن يتحدث المرء عن نفسه . ونحن الصحفيين نسخر من الكاتب

الذى يبدأ كل مقالاته بكلمة « انا » ، فليس « أنا » هو المهم ، وإنما المهم هو المجموع .. مجموع الناس .

— بل ينبغى أن يهتم كل إنســان بنفســه اولا . والذين يرفضون التفكير فى انفسهم بوضــوح ، تفكيرا واقعيــا ، لا يستطيعون ان يفهموا انفسهم ، ولا سواهم كذلك .. فهل امر نفسك لا يعنيك حقــا ؟

— وما اهمية هذا ؟

— اهميته هى انك إذا لم تحبى نفسك ، فلن تستطيعى ان تحبى سواك !

— وكيف أحب نفسى وهى حافلة بالاغلاط والمسوخ ...

وتوالت الأسئلة عن هذه المسوخ ، وعن طفولتى ، وكيف اننى كنت فى طفولتى الفتــاة الوحيــدة المشتركة فى فــريق « البيســبول » ، وكيف كان الغلمان يعتبروننى « غلاما » مثلهم ، فكان هذا يسرنى .. وكيف كنت العب كرة القــدم كذلك ، واخاشن اللاعبين ، إلى ان شببت عن الطوق .

هل كانت أمى تكرهنى ؟

وكانت ذكريات اللعب الغلمانى هذه هى أول ما طفا فوق تيار الذاكرة من صور طفولتى . ثم اخبرت المحلل — وقــد اصبحت ادعوه باسمه المجرد « جون » — إن والدى استأجر لى معلمة عانســا لتلقننى معلومات السنة التحضيرية ، ففرضت هذه المعلمة على نظاما صارما للاستذكار وتحسين

الخط .. حتى إذا كانت السنة التالية ، ارسلنى والدى إلى مدرسة خاصة تقدمية ، كان مقرها — فى الأصل — منزلا خاصا لبعض الأثرياء ، فى ارقى ضاحية بالمدينة .

وعلى حين غرة ، انبثقت فى ذاكرتى حادثة ظلت منسية نيفا وعشرين سنة : فقد رأيت نفسى واقفة وحدى فى الشارع الكبير ، خارج تلك المدرسة .. ورياح شهر يناير المثلوجة تهب من جهة البحر ، وأنا مسمرة فى مكانى انتظر ان تمر بى والدتى — على عادتها كل يوم — لتأخذنى فى سيارتها للغداء . ومضى وقت طويل ، احتقن خلاله وجهى من شدة البرد ، إلى ان مرت بى إحدى المدرسات ، فسألتنى عن سر وقفتى هكذا فى الشارع ، فقلت لها واسنانى تصطك من البرد : « لقد نسيتنى أمى ..! » .

واخذتنى المعلمة إلى داخل المدرسة . وهناك اتضح لها أن والدتى خاطبت الإدارة بالتليفون ، طالبة ان اتناول غدائى هناك ، لأن عذرا قاهرا كان يمنعها من الحضور لأخذى .. بيد أن عاملة التليفون اهملت ابلاغى هذه الرسالة . وقد اعربت إدارة المدرسة عن أسفها ، بأن قدمت لى وجبة غداء مضاعفة فى ذلك اليوم . ولكن هذا كله لم يمح عن قلبى حرقة الألم . وظل راسخا فى نفسى أن امى قد تخلت عنى ، وأنها كانت تفضل شقيقى وشقيقتى دونى ، فما كانت لتترك احدهما واقفا وحده فى الطريق — كما وقفت — مهما تكن الأسباب !

ومن الغريب أن هذه الذكرى المنسية اثارت غضبى ، حين عاودتنى وانا اتحدث إلى الطبيب ، فشعرت بتلك الثورة القديمة ضد امى ، ووجدتنى اقول لجون :

— لماذا كانت تكرهنى ، ماذا فعلت كى تكرهنى ؟

— ولكنها لم تكرهك .

— كلا ! بل إنها كانت تكرهنى .. وكنت اكرهها !

وتغيظت من نفسى بعد أن افلتت هذه الكلمة ، لأن صدورها عن فتاة مهذبة لم يكن بالأمر اللائق .. وانهمرت دموعى ، فحاولت أن اعتذر ، ولكنه قال :

— لا بأس .. لعلك كنت تشتهين البكاء منذ سنوات ولا تستطعين إليه سبيلا !

واخرجت منديلى لانظف انفى ، فاذا الأعجوبة تحدث : تلك الأعجوبة التى عجز أخصائيو الأنف عن الاتيان بها ، وهى انفتاح مسالك انفى . فتنفست بحرية لأول مرة منذ سنوات ، وكدت ارقص طربا ، فاستغرق « جون » فى التفكير برهة طويلة ، ثم قال :

— الأرجح أن رغبتك فى البكاء وانت طفلة لم تتحقق .. وربما كان ذلك عن كبرياء . وقد ادى انسداد مجارى الدمع إلى انسداد المسالك التنفسية فى الأنف . وسنرى ما إذا كنا سنمضى نحو الشفاء باطراد ..

واعترف هنا بأن الشفاء استمر مع تقدم التحليل .

هذه الأحلام ..؟!

وذات صباح ، خطر لى أن اقص على « جون » — أثناء وجودى معه — حلما من احلامى .. ولم يكن ثمة غرض معين

من روايته ، ولكننى كنت أعانى مشقة — فى ذلك اليوم — فى العثور على موضوع ابدأ به الحديث ، وتذكرت أن تلاميذ « فرويد » يجعلون للأحلام أهمية كبرى فى التحليل النفسى . فقلت لنفسى ان لا بأس هنــاك فى التنقيب بين أحـلام ذلك الأسبوع عن حلم أرويه لجون .

وسردت عليــه حلما رأيت فيه اننــا أقمنا حفلة ، وكنت أرقص حتى كل دماغى — لا قدماى فحسب — من الرقص !.. وكان الراقصون من الشبان ، على قدر ملحوظ من الوسامة. وإذا بشاب غريب طويل القامة يسير فجأة نحوى ويأخذنى من ذراعى إلى الشرفة .. والحقيقة أن هذا الشاب الغريب كان يذكرنى بشخص نسيته على نحو ما !.. وقال لى الشاب فى الشرفة :

— انت لى ، وقــد أتيت من بعيــد لأتزوجك . فهــل تتزوجيننى ؟

— طبعا . فقد كنت انتظر قدومك !

وقلت فى نفسى — فى الحلم — إن ما كان يجرى يشبه إلى حد كبير قصة « سندريلا » ، فلابد من أن أخبر أمى بالأمر ، وليس من شك فى أنها ستفرح لأننى وجدت شخصا يحبنى .. فاندفعت نحو القــاعة لأجدها مهجــورة مظلمة ، ففتشت البيت ، إلى أن وجدت أمى جالسة فى الحجرة الضيقة التى تحت سقف البيت .. وهى حجرة مهجورة كنت أؤمن — فى صغرى — بأنها مسكونة بالعفاريت . فلما أفضيت لها بالنبأ وأنا متهللة ، حملقت فى وجهى بحزن . فاستغربت مسلكها

فى هذه المناسبة السعيدة .. ولكنها لم تلبث أن قالت بأسى : « يا عزيزتى ! انه من أهل الجنوب .. ولكن تزوجيه ما دمت تريدينه على كل حال ..! » ..

فوقع منى كلام أمى موقع الاستغراب الشديد ، بيد أننى فرحت .. واستيقظت وأنا أعجب من هذا الحلم الغريب !

ولم يعلق « جون » بشىء على هذا الحلم ، بل إنه انتظر أن أعلق عليه بنفسى ، فعضضت شفتى فى خجل وقلت له :

— ينبغى أن أعترف أن هذا الغريب يذكرنى بمخبر صحفى شاب أعرفه . ولكنى لم أصــارح نفسى يوما بمدى تأثيره فى نفسى . ثم أن هذا المخبر ليس من أهل الجنوب .

— وما معنى كلمة « جنوبى » فى نظرك ؟

— اننى غير متعصبة اطلاقا ، فلا يعنى الجنوبى شيئا خاصا عندى .

— فى نظرى أنا أنه يعنى الرمز إلى ضيق الأفق ، وكراهة الزنوج ، والتعصب عموما .. ولكن خبرينى : ما هى نظرة والدتك إلى أهل الجنوب ؟

— لا أدرى . ولكن فى استطاعتى أن أسألها وأخبرك .

— لا ضرورة لهذا .. المهم هو ما تظنين أنت أنه رأيها .

— اعتقد انها تتمثلهم أعداء الشماليين فى الحرب الأهلية .

— مرحى ! هذا ما خطر ببالى . فجنــوبى فى لغة أمك رمز لعدو . وهــذا ما قصدته . فكأنمـا أرادت أن تقول

— فى المنام — « مع انه عدو ، فلا مانع من أن تتزوجيه على كل حال » . والعدو هنا لا يقصد به المعنى السياسى ، وإنمـا المعنى الجنسى .. اى انه « رجل » .. انه « ذكر » !

— ومعنى هـذا اننى اعتبر الرجل عدوا ، وان الزواج شر لابد منه !

وهكذا ، اتضح لى — شيئا فشيئا — ما كان خافيـا فى أعماقى . فان تمسكى بالعمل على قدم المساواة مع الرجال ، هو محاولة للهروب من الاستسلام للعدو بالزواج ، بأن اتخفى فى ثياب العدو نفسه !

وكشف لى « جون » بهذا عن مسالة زادتهـا ذكريـات الطفولة وضوحا ، وهى خجلى — فى أعماق نفسى — من أننى فتـاة ، وحسرتى من أننى لم اكن غلامـا . ولذلك فـاننى استرجلت . ومنعت نفسى من المصـير الذى لابد منه لكل انثى .. الا وهو الاستسلام للرجل !

وما اكثر من خرجت معهم من الشبان وانا طالبة ، ثم وانا صحفية ، بيد أننى كنت اقف دائما — فى علاقاتى معهم — عند حد القبلات .. واما عندما يبدأ اللمس ، فلا ، ثم لا !

ليس الحب هكذا ..!

ومع ذكريات الطفولة ، وتقدمى فى التحليل ، بدات انصف والدى ، ولذلك ثرت على « جـون » حين قـال لى يوما : « أن بلواك هى انك لم تتلقى من والديك منحة الحب » .

—. بل انا واثقة من انهما احبـانى كثيرا ولم يضـنا على بشىء .

— وهل كان حبهما من النوع الذى يتيح لك الحرية ؟

— لا تظننى أجهل الحب ... فقد احببت جملة مرات .

— لا أستطيع ان اسمى ما كنت تشعرين به حبا ...

— فاى شىء هو ، إذن ؟

— أنه جوع عاطفى . اما الحب الحقيقى فهو محنة . وانا اتمثل الحب أسما لا فعـلا ، بالمعنى الذى يقـال به ان الله محبة .. واذكرك بتعريف الحب كما ورد على لسان القديس « بولس » وكيف أنه يتحمل المشاق طويلا ، كمـا أنه رقيق عطوف لا يقسو .. وهو مجرد من الحسد ، منزه عن التبذل والطمع . فالحب إذن ينبع من شـعور الإنسان بالشبع من الحياة والامتلاء بروحها ، فى حين أن الجوع العاطفى — الذى يخاله الكثيرون حبـا — ينبع من الشـعور بالنقص والفقر والخواء الداخلى . ولذلك نجد الحب الحقيقى لا يكافح ليقهر ويستولى ويستمتع ، ولا يطلب من المحبوب مقابلا او مثوبة . كما أنه لا ينخدع فى ذلك المحبوب فيظنه إلها أو ملاكا . كلا بل إن المحب الصادق يرى المحبوب على حقيقته بشرا ، ويحبه كما هو ، بعيوبه وحسناته على السواء فلا يطالبه بشىء ، ولا يبتغى سوى خدمة المحبـوب اغتبـاطا بتلك الخدمة . فلا مكان مع الحب الحقيقى للحسد والغيرة والقلق !

— هذا لعمرى لون من الحب جديد . فمن الذى يتحلى به ؟

ـ نحن الآن مهتمون بمن حرموا منه !

وعادت بى الذاكرة إلى سنوات صباى حين كنت أخلط بين الحب وبين الشعور الحسى الذى كان يساورنى بعد القبلة الملتهبة التى استمتع بها من الغلام الذى كنت أخرج معه للنزهة . وتذكرت مغامراتى وأنا فى المدرسة الثانوية مع الشبان ، وكيف كانت القبلة تستغرق دقائق بأكملها ، أنتشى بها وأنا أحسب أن ذلك هو أقصى ما فى الحب من متعة . أما ما وراء القبلة ، فلم يكن يعنينى مطلقا .. ولا كان يعنينى أن يتعذب الشاب من جراء تمنعى الذى كنت أتمسك به إلى النهاية .. أما الآن ، فقد بدت أمامى صورة أخرى للحب ، لم تخطر لى من قبل ، فوجدتنى أتساءل : « وكيف أصل إلى هذا الحب ؟ » .

وقد أجابنى جون على هذا السؤال قائلا :

ـ إن الحب والخوف لا يجتمعان . فالطفل الذى يتلقى من والديه نعمة الحب الحقيقى ـ غير الأنانى ـ تخلو حياته من المخاوف الوهمية ولا يحس الا بالمخاوف الواقعية التى يمكن تفسيرها . أما إذا شب على الخوف ، فانه سيقاوم هذا الخوف بالسلاح الطبيعى ، وهو الكراهية .. كراهية الحياة والعالم الذى يوحى إليه بالمخاوف . فالثقة هى الحليف الأكبر للحب ، والكراهية هى حليف الخوف . ومن ثم فلابد من أن تبدئى بالقضاء على سوء الظن بالناس وبالحياة ، لأنه هو الذى يقضى على الثقة ويوحى بالخوف ويسبب الحقد والكراهية والقلق . فأساس الأمراض العصبية كلها ـ التى

تنجم عنها اختلالات جسمية ـ هو عدم النضوج العاطفى .. والمريض النفسى العصابى ـ كما أراه ـ شخص ناضج جسميا وعقليا ولكنه طفل وجدانيا !

ـ كأن المرض لا يحدث دفعة واحدة بسبب حادثة واحدة ؟

ـ كلا ، وإنما هو يحدث بالتدريج ، نتيجة لتراكم مخاوف وخيبة آمال متكررة تمحو الثقة تدريجيا . وأساس البلية هو تكون شعور عند الطفل ـ بالتدريج ـ بأنه غير مرغوب فيه ، أو بأنه يمكن أن يكون مرغوبا فيه أو غير مرغوب فيه لأسباب لا يمكن التكهن بها ، لأنها رهن بمزاج الوالدين ، إذا كانا هوائيين يعتبران الطفل ملهاة ، فهما يقربانه إذا رغبا فى التسلية والأنس به .. وهما يقصيانه عن حياتهما إذا ضاقا به أو صرفهما عنه صارف !.. وهذا التناقض المتطرف فى سلوك الوالدين نحو الطفل ، يسبب له الارتباك ، ويشعره بأن قيمته ليست فى ذاته ، وبأنّ حياته ليست ملكا له ، وإنما هى تابعة لوالديه .. فاذا ما كبر ، اعتقد أن كل قيمته مرهونة بحسن قبوله عند الناس أو ضيقهم به . وإذا لم يجد عند الأغراب مثل ما كان يجد عند والديه من الحناوة ، استولت عليه التعاسة ، وأصابته العلل النفسية التى أشرنا إليها .. فيكره المجتمع ويكره نفسه ، ويعتقد ـ كما تعتقدين أنت فى أعماقك ـ أنه خلق مسخا ناقصا ، وأنه كان جديرا بأن يكون على غير ما هو عليه .. وكراهية الشخص لنفسه تمنعه من حب سواه من حب الحياة !

— وهل تعتقد اننى استطيع ان ابرا من القلق والخـوف والكراهية ؟

— وبالتأكيد ، ولكن بالتدريج .. ذلك لانك عشت طويلا على عادات نفسية معينة ، ولهـذا يجب أن تتذرعى بالصبر والجلد كى تغيرى هذه العادات إلى النقيض . فابدئى بالثقة بنفسك ، لينتهى بك ذلك – مع الوقت – إلى الثقة بالآخرين ، وبعد الثقة يأتى الحب ، حينمـا يتم نضوجك الوجـدانى ، فتنتقلين من مرحلة الشهوات الطفلية ، والتلهف على امتلاك اللعب الجميلة ، إلى مرحلة الحب الكامل الذى هو بذل وفهم وتقدير وبناء !

.. نحـو الخلاص !

وهكذا اوصلنى « جون » ، بعد أن أخرجنى من التيـه ، إلى الطريق البهيج المفضى إلى الشـفاء . ولم تلبث موجـة التحسن — التى شفت مسالكى التنفسية — ان زحفت إلى امعائى ، وإلى راسى .. فاختفى الغثيـان والقىء وتلاشى الصداع .. وبدات اهضـم بغير حاجة إلى أدوية . ونقص وزنى نقصانا ملحوظا ، بعد أن انصرفت نفسى عن كميـات « الجيلاتى » الضخمة التى كنت التهمها . فقـد ادركت من مراجعة ذكريات طفولتى أن إهدائى « الجيلاتى » كانت طريقة أبى المفضلة للبرهنة لى على حبه إياى . فلما كبرت وواجهت الحياة فوجدت فيها جفاء أفزعنى ، صرت اجـد فى التهـام « الجيلاتى » بكثرة استرجاعا صناعيا رمزيا للحنان الأبوى !

وبالمثابرة على مواجهة نفسى بصراحـة ، ونقد تجـارب التربية السيئة — التى منيت بها فى طفولتى — علميا ، ولدت من جديد امراة بلا مخاوف .. ومن ثم بلا أمراض تهد الجسم وتعيى الأطباء .

واستقبلت الحيـاة بجسم سـليم ، لأننى عـرفت كيف استقبلها بقلب سليم .


سيجموند فرويد يحلل
"هستيريا" الحب المكبوت
عند النساء
(الآنسة لوسي، والرائحة الوهمية!)



فرويد .. وهذه الدراسة الممتعة

فى السادس من شهر مايو سنة ١٨٥٦ ولد « سيجموند فرويد » ، فى بيت متواضع عتيق البناء ، مكون من طابقين ، منفصل عن سائر البيوت ، وليس لواجهته منظر جذاب . وكتب لهذا الطفل ان يشب ليكون صاحب ثورة من أكبر الثورات العلمية وابعدها اثرا فى تفكير الناس وفى سلوكهم . ولعله من اكبر صناع الموجه الجديدة التى تسود عالمنا المتطور . فهو الذى رفع عن الجنس حصارا ضربته عليه التربية والتقاليد والأديان ، أجيالا يخطئها الحصر .. وجعل منه مسالة طبيعية علمية مثل التغذية ، والتنفس ، والدورة الدموية ! فان كنت لا تخجل أيها الإنسان العصرى من تنفسك ، ومن جوعك وسعيك إلى الطعام ، ومن نبضات عروقك .. فلماذا — يقول سيجموند فرويد — تخجل من نزعاتك الجنسية ؟ أنها أصيلة فى تكوينك ، ومسيطرة على دوافع سلوكك ، شئت أن تعترف بهذا أو لم تشأ ! وإن لم تعترف بذلك فأنت المخطىء وانت الخاسر فى نهاية المطاف . لأن هذا التجاهل لأصل طبيعة تكوينك ، وهذا الخزى من نشاطه ، سيؤدى بك إلى الخروج عن السلوك السوى ، وهو السبب الحتمى لكل انواع الاختلالات النفسية والعصبية !

ومن الطريف ، أن هذا العالم الذى عنى بالشذوذ النفسى ، نشأ فى أسرة تضم الكثير من المفارقات غير المألوفة : فأمه الحسناء الورعة الرقيقة كانت ، حين انجبته ، فى التاسعة عشرة من عمرها ، اما ابوه فكان قد تجاوز

الخمسين . وكانت لهذا الأب زوجة سابقة ماتت عن أولاد — هم إخوة عالمنا « سيجموند » من أبيه — اكبر سنا من والدة سيجموند ، زوجة أبيهم الجديدة !.. بل إن لسيجموند ابن اخ اكبر منه فى العمر بسنة !.. ولذا كانت علاقته بأبيه اقرب إلى علاقة الحفيد بالجد ، وعلاقته بأخويه الكبيرين اقرب إلى علاقة الابن بأبيه ، وعلاقته بابن اخيه اقرب إلى علاقة الأخ الأصغر . ووضعه بالنسبة لابن اخيه يعطيه مع هذا الحق فى الاحترام « من الوجهة الرسمية » . ولكن الواقع انه كان يتلقى — وهو العم المفروض انه محترم — اللكمات والصفعات من ابن أخيه « جونى » كلما اختلفا فى اللعب ، فيمتلىء قلب سيجموند بالغيظ ويظل قلقا وفى حرب مستمرة معه ، لاسترداد هيبته السلبية ! والأب القاسى يثير الخوف فى وجدان الطفل الذى تدلله أمه ، فيضمر سيجموند لأبيه الحقد لأنه يزاحمه فى عناية امه وحنانها !.. ويظل هذا شعوره إلى أن يبلغ الثامنة من عمره ، فيتغير سلوك ابيه ، ويصحبه معه فى نزهاته ، وتنشأ بينهما صداقة وطيدة تزداد مع الأيام توثقا ، من غير أن تمحو من نفس سيجموند ضغائن الطفولة وحسدها ، فاذا نفسه اليافعة مسرح لصراع الحب والبغض ، ولتناقض الواقع مع المفروض ...

فاذا اضفنا إلى هذا ان شقيقته ولدت فى العام الثالث من عمره ، ادركنا اهمية شعوره المبكر بالغيرة . ولذا ظل فرويد إلى ختام حياته يقول إن اجمل واسعد ايام عمره هى السنوات الثلاث الأولى التى كان حب أمه خالصا له فيها . وظل يحلم بمشاهد من تلك المرحلة إلى ما بعد ذلك بأربعين عاما تقريبا ..

احلاما واضحة كانت عنصرا اساسـيا من عناصر نظريته فى تفسير الأحلام !

وفى (فيينا) قيض له القدر استاذا عظيما فى ابحاث وظائف الأعضاء تتلمذ عليه لست سنين ، وجهه فيهـا الأستاذ إلى دراسة المخ والأعصاب ، فاستغرق فى هذه الدراسة حتى تخلف عن اجازة الطب ثلاث سنوات . وبعد تخرجه لم يعمل بالطب إلا قليلا ، وحصل على منحـة دراسـية فى باريس لدراسة الأمراض العصبية على يد « شاركو » ، وهناك بدات عنايته بعـلاج الأمراض النفسـية ، وخطـر له مذهبه فى التحليل ، على ذلك الأساس الخطير الذى يجعل كل اختلال فى النفس نابعا من الكبت الجنسى الذى يعتبره فرويد مصدر جميع العلل والشرور النفسية ، حتى حينما يبدو المرض ابعد ما يكون عن الجنس ، ظاهريا ، كما هو الحال فى هذا النموذج البديع من نماذج مذهبه الفذ فى التحليل :

الآنسة لوسى ، والرائحة الوهمية !

كنا فى أواخر العام عنـد ما حـول إلى طبيب من زملائى شابة إنجليزية ذات تكوين رقيق وبشرة شاحبة اللون ، تدعى « لوسى » ، فى نحو الثلاثين من عمرها .. وكان يعالجها من التهاب تقيحى متكرر فى الأغشية المخاطية .. ثم ظهرت عليها فى النهاية اعراض جديدة شكت إليه منهـا ، بيد أن هـذا الطبيب الراسخ فى العلم لم يستطع تفسير هـذه الأعراض الجديدة باية اصابة عضوية موضعية . وكانت الفتاة قـد فقدت قبل ظهور هذه الأعراض بمدة كل قدرة فى حاسة الشم

لديها ، فقدانا تاما ، ولكنها صارت الآن تشـكو باستمرار تقريبا من احساسات تتصل بحاسة الشم تنبع من ذاتهـا ، اى ليس لها مصدر موضوعى فى الأشياء المحيطة بها . وكانت تتاذى تاذيا شديدا من هذه الاحساسات التى تتعقبها وتسبب لها كربا بالغا . يضاف إلى هـذا أنها كانت تعانى فى الوقت نفسه من ارهاق عصبى ، وهبوط شديد فى الروح المعنوية ، وثقل فى الراس ، ومن نقص مطـرد فى الشهية ، وضعف فى الهمة والكفاية للعمل .

وكانت هـذه الشابة تعيش فى بيت المدير الإدارى لأحـد المصانع فى ضواحى فيينا ، حيث تعمل مربية ، وكانت — فيما عدا علتها الأنفية — تتمتع بصحة جسدية طيبة . وقد اكـدت لى عباراتها الأولى ما كان الطبيب قد ذكره لى عن حالتهـا جملة وتفصـيلا . وفيما يتعلق بالأعراض الهستيرية — اى الاحساسات الشمية الوهمية المكربة — تبين لى ان انفها فاقد كل احساس بالألم بوجـه عام ، وأن لم يفقـد الحساسية للمس . وتأكدت بعد الفحص الإجمالى ان ذلك المرض الأنفى لم يقلل من مجالها البصرى . ووجدت انفها عاجزا عن التاثر حتى بالمثيرات النفاذة مثل رائحة النوشادر !

الرائحة المتكررة التى تطاردها !

وكان لابد فى محاولاتنا الأولى لفهم علتهـا ان نفسر تلك الاحساسات الشمية الوهمية المكربة بانها اعراض هستيرية مزمنة ، ما دامت هذه الأوهام لها صفة التكرار والتواتر . اما انحطاط قواها المعنوية فلعله كان نتيجة للصدمة التى احدثت

الهستيريا ، وينبغى فى هذه الحالة أن يتسنى لنا العثور على تجربة حدثت لها فى الماضى تتضمن تلك الروائح بالذات ، بصفة فعلية موضوعية ، ثم تحولت لديها الآن إلى روائح وهمية تنبع من ذاتها ، فلابد ان تلك التجربة كانت هى الصدمة التى ترمز لها فى ذاكرتها هذه الاحساسات الشمية المكربة . وينبغى أن نعتبر هذه الهلوسات الشمية المتكررة ، مع ما يصاحبها من انحطاط القوى المعنوية ، بمثابة « نوبات هستيرية » . ومن الجوهرى ان ندخل فى حسابنا ان هذه الروائح الوهمية لابد ان يكون لها مصدر خاص محدد يسمح بانبعاثها ، ابتداء من موضوع « واقعى » بالذات .

وسرعان ما صدق ظنى . فعندما سألتها ما هى هذه الرائحة المكربة التى ما تفتأ تلح عليها ، أجابتنى :

— أنها رائحة حلوى « بودنج » محروق !

وبذلك لم أعد بحاجة إلى مزيد من الاستقصاء عن فحوى التجربة التى سببت لها الصدمة الهستيرية . فالمفروض ان رائحة بودنج محترق صاحبت هذه التجربة ، وإنه لمن الخارق للمألوف بلا شك ان يقع الاختيار على الاحساسات الشمية لتكون رموزا فى الذاكرة للصدمات الهستيرية . بيد انه ليس من العسير العثور على تعليل لهذا الاختيار غير المألوف . فالمريضة كانت مصابة بالتهاب تقيحى متكرر فى الأغشية المخاطية ، ومن ثمة كان انتباهها مركزا على انها واحساساتها الانفية . وكان كل ما أعرفه عن ظروف حياة المريضة مقصورا على أن الطفلتين اللتين ترعاهما لم تكن لهما أم ، فقد ماتت هذه الأم بعلة حادة خاطفة قبل ذلك ببضع سنين .

وهكذا قررت أن أجعل رائحة البودنج المحروق نقطة الانطلاق للتحليل . وسأعرض سياق التحليل كما لو كان جرى فى ظروف مواتية . والحقيقة ان الجلسة الوحيدة التى كان مفترضا ان يتم فيها كل شىء امتدت فصارت عدة جلسات ، لأن المريضة لم يكن متاحا لها ان تزورنى إلا فى مواعيد عيادتى ، مما جعلنى عاجزا عن تخصيص وقت طويل للقائها . ثم أن المناقشة الواحدة من هذا القبيل كانت تستغرق عدة زيارات ، يتجاوز موعدها الأسبوع الواحد ، لأن عمل المريضة لم يكن يسمح لها بموالاة الرحلة من المصنع إلى دارى مرارا متلاحقة جدا ، ولذا كان علينا ان نقطع حديثنا بسرعة مراعاة لضيق الوقت ، مجازفين باستئناف الحديث فى المرة التالية ابتداء من نقطة مختلفة .

عجزه عن تنويمها مغناطيسيا !

وحاولت أن أستخدم « الاستهواء » لتنويمها مغناطيسيا ، ولكن الآنسة لوسى لم تستغرق فى النوم . ولذا استغنيت عن التنويم الاستهوائى وسرت فى خطوات التحليل كلها والمريضة فى حالة طبيعية ..

ولابد لى هنا من الإشارة إلى قصتى مع منهج التنويم المغناطيسى فى العلاج : فقد كان شائعا فى العقد الأخير من القرن الماضى أن التنويم المغناطيسى اقوى وانجع وسيلة للعلاج النفسى . وحاولت ان اتعلم هذا المنهج الذائع الصيت على يد «برنهايم» فى عيادته ، وكان مشهورا بانه من أساطينه، وله فيه تلاميذ . ولكن ما أن حاولت استخدام التنويم

المغناطيسى مع مرضاى حتى تبين لى ان قدراتى الشخصية على الاقل محدودة جدا فى هذا المجال ، واننى ما لم افلح فى تنويم اى مريض بعد تكرار المحاولة مرتين ، فلن يكون فى مقدورى فرض النوم عليه . وكانت النسبة المئوية للحالات الناجحة بين مرضاى اقل كثيرا جدا من النسبة التى اذاع برنهايم انه حصل عليها فى تجاربه .

ولم البث ان اقلعت تماما عن اختبار مدى نجاحى فى تنويم المريض ، لأن ذلك الاختبار يثير فى كثير من الحالات مقاومة المريض ويزعزع ثقته بى . وانا بحاجة إلى هذه الثقة للمضى فى الجانب الأهم من العمل النفسى . وفى مرحلة تالية بدات اسأم اطلاق الأوامر والتاكيدات من قبيل :

— ستنام .. انت تشعر الآن بالنعاس . نم !

لأن المريض كان فى معظم الحالات يصيح محتجا :

— ولكنى لست نائما يا دكتور !

فاشعر بالحرج ، وإن كنت اعتقد ان الكثيرين من الأطباء الذين يمارسون العلاج النفسى فى وسعهم ان يخرجوا من مثل هذه المآزق ببراعة تتجاوز مقدورى . أما انا فوجدت ان خير ما افعله هو التظاهر بالتخلى عن التنويم ، عندما افشل فى فرضه على المريض فى المحاولة الأولى ، واكتفى منه بالتركيز والح فيه عليه ، فآمره بالاستلقاء ، والاسترخاء البدنى ، وإغلاق عينيه استكمالا للتركيز المطلوب منه . ولعلنى بهذا الأسلوب احصل بأيسر جهد على اعمق مستوى للاستهواء يمكن الوصول إليه فى حالة هذا المريض بالذات .

وقررت ايضا — مهتديا بخبرتى ومحاولاتى — أن افترض ابتداء أن مرضاى يعرفون كل ما له علاقة بالمرض النفسى الذى يعانون منه ، وأن المسالة كلها تتوقف على نجاحى فى اجبارهم على الإدلاء بكل ما يعرفونه فى هذا الصدد . وعندما كنت اصل إلى الحد الذى تجيبنى فيه المريضة عن سؤال من قبيل : « منذ متى يصيبك هذا العرض ؟ أو ما مصدره ؟ » ، بقولها : « الحقيقة انى لست أدرى . » .. كنت أتصرف على النحو التالى : اضع يدى على جبهة المريضة ، أو آخذ يدها بين يدى كلتيهما ، واقول لها :

— ستفكرين فى هذا تحت ضغط يدى . وحينما ارخى يدى واكف عن الضغط سترين شيئا ما امام ناظريك المغلقين ، أو يمر بخاطرك شىء ما . تشبثى بهذا الشىء ، لأنه سيكون ضالتنا التى ننشدها .. والآن ماذا رايت لتوك ، أو ماذا خطر ببالك ؟؟

وقد ادهشنى شخصيا أن هذه الطريقة عندما استخدمتها لأول مرة (وكان ذلك مع مريضة اخرى غير الآنسة لوسى) افادت على بالضبط النتائج التى كنت بحاجة إليها . وفى وسعى ان اقول إن هذه الطريقة لم تخذلنى على الإطلاق تقريبا منذ تلك التجربة الأولى . بل كانت توجهنى دائما إلى المنحى الذى ينبغى ان يسلكه التحليل ، وكانت تتيح لى دائما ان امضى فى كل تحليل من هذا القبيل إلى ختامه الطبيعى الصحيح بغير حاجة إلى التنويم المغناطيسى أو الاستهوائى .

عندما تكتم المريضة أسرارها .. عن الطبيب !

وبمرور الوقت صرت أشد ثقة بطريقتى هذه ، حتى لقد بلغ بى الأمر حينما يكون جواب مرضاى : « لست أرى شيئا . ولم يخطر ببـالى شىء . » ، ان ارفض هـذا القول واعده مستحيلا ، وأؤكد لهم انهم على التحقيق فطنوا إلى المطلوب ولكنهم رفضوا الاقرار بانه هو ضالتنا (اى مصدر العرض المرضى) ولذا لم يدلوا به إلى . ثم اقول لهم انى مستعد لتكرير الضغط بيدى على أيديهم – أو جبـاههم – ما شـاءوا من المرات ، وهم يقينا سيرون ذلك الشىء المرفوض بعينه فى كل مرة . وكان يتضح بالتجربة ان ما ذهبت إليه صحيح فى جميع الأحـوال . وان ملكـة النقد لديهم لم تكن مسترخية ، ولذا رفضوا الذكـرى التى برزت فى وجدانهم ، او الفـكرة التى خطرت لهم ، على أساس أنها غير ذات مدلول ولا علاقة لها بالموضوع ، ولا يمكن ان تخدمه . ولكن بعد ان يدلوا بها إلى كان يتبين على الدوام انها الضالة المنشوة !.. وكان المريض احيانا – بعد تكرير طريقة الضـغط بيدى ثـلاث مرات او اربا – يعقب على نجاحى فى اسـتخراج المعلومات منـه ، بقوله :

– الواقع يا دكتور انى كنت على وعى بهذا الشىء منـذ اول محاولة ، ولكنه بالضبط مالا اود الافضاء به !

او يقول : « ولكنى كنت آمل الا يكون هذا هو المطلوب !» .

والحقيقة ان طريقتى المجهدة – الأشد اجهادا على الأقل من استجواب المريض وهو واقع تحت تاثير التنويم المغناطيسى

او الاستهوائى – امتازت مع هذا بأنها كفلت لى الاستقلال عن ذلك التنويم ، وزودتنى بالبصيرة النافذة إلى الدوافع التى تتحكم اكثر الأحيان فى « نسيان » الذكريات الهامة . وبوسعى ان اؤكد ان هـذا النسيان متعمد ومرغوب فيـه من جانب المريض فى اغلب الأحيان . وان نجاحه لا يمكن الا ان يكون ظاهريا . اى اننا متى الححنا ، اكتشف المريض ما كان يظنه نسيا منسيا !

ولقد بلغ بى الأمر فى تطبيق هذه الطريقة حـدا ادهشنى اكثر من هذا عندما استخرجت على هـذا النحـو الأرقـام والتواريخ الدقيقة التى كان يبدو فى ظاهر الأمر انهـا نسيت منذ امد طويل . وهكذا ثبت لى إلى اى مدى غير متوقع يمكن ان تبلغ الذاكرة البشرية فى دقتهـا !.. واستخلص مما تقدم ان الخبرات التى كان لها علاقة هامة بنشـأة المرض ، هى وكل ما يلازمها او يقترن بها ، محفوظة فى ذاكرة المريض حتى حينما يبدو انهـا منسـية تماما ، بحيث يعتقد انه عاجز عن استرجاعها .

وبعد هذا الاستطراد التوضيحى ، اعود إلى حالة الآنسة لوسى ..

عندما تتداعى الذكريات !

لم تثمر محاولاتى فى الايحاء – كمـا ذكرت آنفا – ولم افلح فى تنويم الآنسة لوسى ، وقصارى الأمر انهـا استلقت بهدوء فى درجة مواتية لاستقبال تاثيرى عليها ، مغلقة العينين

طيلة الوقت ، وملامح وجهها متصلبة إلى حد ما ، لا تتحرك فيها خلجة ، من فرعها إلى قدمها ، فسألتها :

ــ أتذكرين أول مناسبة شممت فيها رائحة البودنج المحروق ؟

ــ أجل . أعرفها بالضبط . كان ذلك منذ شهرين ، قبل عيد ميلادى بيومين . وكنت مع الطفلتين فى قاعة الدرس ألعب معهما لعبة الطهو . وجىء إلى بخطاب كان ساعى البريد قد تركه لى . ورأيت من طابع البريد ومن الخط الذى كتب به العنوان على المظروف أنه من والدتى التى تعيش فى (جلاسجو) بانجلترا . وأردت أن أفضه ولكن البنتين اندفعتا نحوى وانتزعتا الخطاب من يدى صائحتين : « كلا ! لا ينبغى أن تقرئيه الآن ! فلابد أنه موجه اليك بمناسبة عيد ميلادك ! سنحتفظ لك به ! » . وفيما كانت الطفلتان تلعبان هذه اللعبة معى ، دهمتنى رائحة قوية على حين غرة : فقد غفلتا عن البودنج الذى كانتا تطهوانه فأخذ يحترق .. ومنذ ذلك الحين وتلك الرائحة تطاردنى . فهى هناك على الدوام ، ولكنها تشتد عندما يعترينى اضطراب .

ــ أيبدو لك هذا المنظر بوضوح أمام عينيك الآن ؟

ــ بحجمه الطبيعى ، وعلى نحو ما مرت بى خبرته بالضبط !

ــ فماذا عسى أن يكون فيه إذن مما أثار اضطرابك إلى هذا الحد ؟

ــ لقد تأثرت لأن الطفلتين كانتا ودودتين معى بهذا الشكل .

ــ أو لم تكونا هكذا دواما ؟

ــ بلى ! ولكن هذا حدث منهما حينما وصلنى خطاب أمى .

ــ لست أفهم لماذا توجد المفارقة بين مودة الطفلتين وخطاب والدتك . فهذا ما يبدو من مضمون كلامك !

ــ كان فى نيتى أن أعود إلى بيت أمى ، وكان التفكير فى فراق البنتين العزيزتين يملأ جوانحى بالحزن .

ــ وما خطب والدتك ؟ هل استوحشت من الوحدة وأرسلت تدعوك إليها ؟ أم تراها كانت مريضة فى ذلك الحين ؟ أكنت تتوقعين منها أنباء ؟

ــ كلا . أنها ليست قوية البنية جدا ، ولكنها ليست مريضة بالضبط . وهى تعيش مع مرافقة .

ــ لماذا إذن كنت تزمعين فراق البنتين ؟

ــ لم يعد فى مقدورى تحمل البقاء فى تلك الدار ، فمدبرة البيت والطاهية والمربية الفرنسية كن يحسبن فيما يبدو أنى أضع نفسى فوق منزلتى الحقيقية ، فتضامن فى مؤامرة صغيرة ضدى وتقولن على شتى الأقاويل لدى جد الطفلتين ، ولم أظفر من السيدين بكل التأييد الذى كنت أتوقعه عندما شكوت إليهما الأمر . فأشعرت المدير (والد الطفلتين) بعزمى على ترك العمل بعد فترة حددتها ، ريثما يتدبر الأمر ويستبدل بى غيرى ، وكان جوابه وديا للغاية . وقال لى أنه يحسن بى

ان اتروى فى الأمـــر اسبوعين قبل ان اطلعـــه على قرارى النهائى . وكنت فى حالة تردد وعدم ثقة فى ذلك الوقت فخطر لى انه ينبغى على ان اغادر البيت ، ولكن الأمر انتهى بى إلى البقاء .

— اثمة شىء معين كان يربطك بالفتاتين فيما عدا شغفهما بك ؟

— اجل . كانت امهما الراحلـــة على قرابة بعيدة بأمى . وكنت قد وعدتها وهى على فراش الموت اننى ساقف حياتى وما املك من قوة على رعاية الطفلتين ، واننى لن افارقهما ، وسأحل لديهما محل الأم . ولا شـــك فى انى قد نكثت بهـــذا العهد عندما ابلغت والدهما برغبتى فى الرحيل !

الكبت المتعمد .. والسر الكامن وراءه !

وكانت هـــذه الإجابة تبدو ختام تحليل ظاهرة الاحساس الشـــمى الوهمى لدى مريضتى . فهـــا قد تبين ان هـــذا الاحساس الذاتى الوهمى يرجع اصله إلى احساس شمى موضوعى ، هو احتراق البودنج بالفعل فى اول مرة . وهو احساس له صلة حميمة واقتران وثيق بتجربة هى فى الواقع مشهد درامى اصطرعت فيه عواطف متعارضـــة . الا وهى تحسر المربية على فراق الطفلتين من جانب ، والصغائر التى كانت رغم كل شىء تحفزها إلى اتخاذ قرار حاسم بهذا الفراق من الجـــانب الآخـــر . وكان من الطبيعى ان يذكرها خطاب والدتها بما لديها من اسباب لاتخاذ هـــذا القرار الاليم ، لان

نيتها كانت معقودة على اللحاق بأمها متى غادرت ذلك البيت. وقد ادى التعارض بين عواطفها ، إلى تصعيد وتحويل لحظة وصول خطاب والدتهـــا إلى صدمة . وبقيت الرائحـــة التى اقترنت بهذه الصدمة عالقة ملحة ، باعتبارها رمزا للصدمة !

ومع هذا كان لم يزل من الضرورى ان اجد تفسيرا لوقوع الاختيار على هذه الرائحة لتكون رمزا دون سائر المدركات الحسية التى قدمها لها ذلك المشهد . وكنت على استعداد للاستعانة بالالتهاب المزمن فى انفها على تفسير هذه النقطة . وردا على سؤال مباشر قالت لى انها فى ذلك الوقت بالضبط كانت مصابة بنوبة اخرى من البرد فى انفها ، بحيث لم يكن فى وسعها تقريبا ان تشم شيئا على الاطلاق . ومع هذا فهى — لاضطرابها الشديد — استطاعت ان تحس رائحة البودنج المحروق التى تغلبت على فقدانها العضوى لحاسة الشم .

بيد انى لم اكن راضيا عن هذا التفسير الذى وصلنا إليه بهذه الطريقة . كان كل شىء يبدو مقبولا جدا وعلى درجـــة عالية من الرجحان ، ولكن شيئا ما كان يريبنى . كان ينقصنى تعليل كاف لكون هذه الاضطرابات العاطفية وهذا التعارض بين الانفعالات تؤدى إلى تكوين اعراض الهستيريا ، دون اى اعراض اخرى لشىء آخر . لمـــاذا لا تستدعى إلى ذاكرتهـــا دواما المشهد نفســـه ، بدلا من ذلك الاحساس المصاحب له الذى افردته دون غيره حين اختارته رمـــزا لتلك الذكرى ؟ فالآنسة لوسى لم تصبها الهستيريا إلا منذ تلك الصدمة ، او على الأقل منذ تلك الحكاية الصغيرة عن متاعبها .

وكنت على علم من قبل — على هدى تحليل حالات مشابهة — انه لابد من تحقق شرط جوهرى قبل الإصابة لأول مرة بالهستيريا . واعنى بهذا الشرط ان تكون فكرة ما قد كبتت حتما وعمدا واقصيت عن مجال الشعور الواعى ، وبالتالى عن كل الظروف الشعورية المرتبطة بها (وربما شمل هذا الإجراء أيضا جانبا من هذه الظروف ، إمعانا فى كبت الفكرة الأصلية) . واساس الكبت نفسه لا يمكن الا ان يكون شعورا بعدم الارتياح بسبب عدم التوافق بين الفكرة الواحدة المطلوب كبتها وبين الكتلة المهيمنة على الشخص من الأفكار الأخرى ، فتأخذ الفكرة المكبوتة ثارها بأن تصبح مصدرا للمرض !

وبناء على هذه النظرية استنتجت من وقوع الآنسة لوسى فريسة للتحويل الهستيرى فى تلك اللحظة أنه لابد ان يكون من بين عناصر الصدمة عنصر حرصت عامدة على تركه طى الخفاء ، وبذلت جهدها كله كى تنساه !.. فاذا ما اخذنا فى الاعتبار تعلقها بالطفلين ، وحساسيتها فى الوقت نفسه بخصوص أقاويل زميلائها وزميلاتها من العاملين الآخرين فى البيت .. لم تبق إلا نتيجة واحدة لا محيص منها !.. وكنت من الجراة بحيث ذكرت لمريضتى ذلك التأويل . قلت لها :

— لا استطيع ان اعتقد ان هذه هى كل أسباب مشاعرك نحو الطفلتين . بل اعتقد انك فعلا واقعة فى حب مخدومك المدير ، وإن لم تفطنى إلى ذلك شخصيا !.. وبذلك تضمرين الأمل فى الحلول محل أمهما على وجه الحقيقة ، حلولا ماديا

فعليا كاملا . ثم علينا أيضا أن نتذكر الحساسية التى تشعرين بها الآن بإزاء الخدم بعد أن عشت معهن سنوات فى سلام ودعة . ذلك أنك تخشين أن يكون لديهن فكرة غامضة عن آمالك وأمانيك فى هذا الصدد . وانهن يسخرن منك فيما بينهن !

فأجابتنى بطريقتها المقتضبة المعتادة :

— أجل . اظن أن هذه هى الحقيقة !

— ولكن أن كنت تعرفين أنك تحبين مخدومك ، فلماذا لم تذكرى لى هذا ؟

— لم اكن أعرف أنى أحبه . او على الأصح لم اكن أريد أن أعرف هذا . بل كنت أريد أن اخرج هذه الفكرة من رأسى ولا أعود للتفكير فيها . واعتقد انى افلحت فى هذا آخر الأمر ..

وليس فى مقدورى — ولا أنا حاولت — أن أقدم وصفا أفضل من هذا لتلك الحالة العقلية الغريبة التى يعرف فيها المرء شيئا ما ولا يعرفه فى الوقت نفسه ! وواضح انه من المستحيل على أى إنسان أن يفهم ما تعنيه هذه الحالة من الثنائية او الازدواج النفسى ما لم يكن هذا الإنسان قد مر بمثل هذه الحالة شخصيا . اما أنا بالذات فقد مرت بى تجربة بارزة الأهمية من هذا القبيل لا تزال ماثلة فى ذهنى بوضوح . ولذا فهمت ما تعنيه الآنسة لوسى ، وسألتها :

— ولماذا لم تكونى ميالة للاعتراف بهذا الحب ؟ اتراك تشعرين بالخزى من حبك رجلا ؟

— لا . لا . أنا لست مفرطة الحياء ولا أجاوز فى احتشامى حدود المعقول . واعلم اننا لسنا مسئولين عن مشاعرنا على كل حال . كل ما فى الأمر انه ثقل على نفسى واورثنى الهم انه مخدومى ، وأنى فى خدمته وأعيش تحت سقفه وفى كنفه . ولذا لا أستطيع ان اشعر بالاستقلال إزاءه شعورى بالاستقلال إزاء اى شخص آخر. ثم انى بعد هذا وذاك لست إلا فتاة فقيرة ، وهو رجل طائل الثراء ومن اسرة راقية . فما من شك أن الناس حريون أن يسخروا منى لو انهم فطنوا إلى شىء من هذا !

ولم تبدر منها بعد هذا مقاومة لالقاء الضوء على أصل هذا الميل الذى شعرت به نحو مخدومها ، فقالت لى أنها عاشت السنوات القلائل الأولى فى داره سعيدة هانئة هادئة النفس ، تقوم بواجباتها فى طمأنينة خلية البال من الرغبات التى لا سبيل إلى اشباعها . وكان مخدومها رجلا جادا ، لديه من الشواغل فوق طاقته ، ومسلكه إزاءها كان على الدوام مطبوعا بالتحفظ . الا انه ذات يوم شرع معها فى حديث — أو على الأصح فى مناقشة — حول الخطوط العريضة التى يجب أن تتحراها فى تنشئة البنتين . وفى هذه المناسبة تخلى عن الرسميات قليلا واضحى ودودا اكثر من المألوف منه .. وقال لها كم هو معتمد عليها فى رعاية طفلتيه اليتيمتين .. ونظر صوبها وهو يقول هذه العبارة نظرة ذات معنى.. ومنذ هذه اللحظة بدأ حبها إياه . وسمحت لنفسها أن تهدهد وتنعش الآمال التى شيدت صروحها على اساس هذا الحديث. ولكنها عندما لم تجد منه ما يدل على اتخاذ خطوات إيجابية ، بل

وذهب سدى كل ما توقعته بنفاد صبر ، فلم يدعها لجلسة ثانية يتبادلان فيها وجهات النظر ، قررت إقصاء المسألة كلها من ذهنها !

وقد وافقتنى الآنسة لوسى تمام الموافقة على أن النظرة التى رأتها منه أثناء حديثهما لعلها كانت ناجمة عن تفكيره فى زوجته الراحلة ، وذكرياته العاطفية عنها . واقرت بلا تردد وبوضوح تام انه لم يكن ثمة ما يدعو اطلاقا للظن بأن مشاعرها الحارة نحوه يمكن أن تكون متبادلة !

وتوقعت أن هذه المناقشة قد تتمخض عن تغيير جوهرى فى حالتها . بيد أن شيئا من هذا لم يحدث فى تلك الآونة ، فظلت روحها المعنوية هابطة ، وشعورها بالكرب وثبوط الهمة مستمرا . أجل كانت تشعر بشىء من الانتعاش فى الصباح بفضل علاج مائى وصفته لها فى ذلك الحين ، ولكن رائحة البودنج المحروق لم تختف كل الاختفاء وإن أمست أقل انتيابا لها ، واضعف وطأة . وقالت لى أنها لم تعد تلم بها إلا حينما تكون مضطربة النفس اضطرابا شديدا جدا .

البحث عن أسرار أخرى .. فى العقل الباطن !

وقادنى إلحاح هذا الرمز التذكارى إلى الارتياب فى أن هذا العرض يمثل — بالإضافة إلى المشهد الأساسى المكون للصدمة الرئيسية — صدمات كثيرة أقل شأنا ، متفرعة من ذلك المشهد . وعلى هذا الأساس طفقنا نفتش عن أى شىء آخر يمكن أن تكون له علاقة بمشهد البودنج المحروق . وخضنا

لهذا الغرض فى موضوع الخلافات البيتية مع الخـدم ، وفى مسلك جد الفتاتين ، وما إلى ذلك . وفى غضون هذه الفتـرة تعرضت معالجتها النفسية للانقطاع بعض الوقت لإصابتها بنوبة جديدة من المتاعب الأنفية ، وأدى فحصها فى ذلك الحين إلى اكتشاف وجود تسوس فى عظام تجويفها الأنفى .

.. وعند عودتها لاستئناف العلاج ، ابلغتنى انها تلقت فى مناسبة عيد الميلاد هدايا كثيرة جدا من السيدين ربى البيت ، بل ومن الخدم ايضـا ، وكأنهم جميعـا كانوا متلهفين على مصالحتها وترضيتها ، ومحو كل ما علق بذاكرتها من مشكلات وشوائب الشهور القلائل الأخيرة . بيد أن كل هذه العلائم الدالة على النيات الطيبة نحوها لم تترك فى نفسها أثرا على الاطلاق !

وعندما سألتها مرة اخرى عن رائحة البودنج المحروق ، قالت لى إنها اختفت تمام الاختفاء ، إلا أن رائحة اخرى مماثلة أخذت تزعجها . وهى رائحـة تشـبه ما ينبعث من دخان السيجار . واضافت انها تظن ان هذه الرائحة كانت موجودة أيضا من قبل ، بيد أنها لم تكن ظاهرة لأن رائحـة البودنج المحروق كانت طاغية عليها . أما الآن فقد خلا لها الجو فبرزت متفردة .

ولم أكن لأرضى عن نتائج العلاج بهـذه الصورة . فما صنعت شـيئا أنى اجليت عن الميدان عرضا معينـا للمرض كى يحل محله على الفور عرض آخر ، وهذا ما يؤخذ دائما على كل علاج ينصب على الأعراض دون غيرها . وعلى الفور لم

أتردد فى بذل ما فى وسعى للتخلص من هذا العرض التذكرى الجديد ، وعن طريق التحليل ايضا . ولكن الآنسة لوسى لم تكن تدرى من أين جاءها هذه المرة ذلك الاحساس الشمى الذاتى (الوهمى) . ولا ما هى المناسبة الهـامة التى كانت المصدر الموضوعى (الواقعى) لهذه الرائحة الجديدة . وقالت لى فى ذلك الصدد :

— الناس يدخنون السيجار كل يوم فى دارنا ، ولسـت ادرى على الحقيقة هل هذه الرائحة التى احسها مرتبطـة بمناسبة خاصة ، أو غير مرتبطة .

وعندئذ لجأت إلى طريقتى المعهـودة ، فألححت عليها أن تحاول التذكر تحت تأثير يدى الضـاغطة على يدها . وكنت قد لاحظت أن ذكرياتها ذات طابع تشكيلى شديد الحيوية ، وأن ذاكرتها من النمط البصرى . وبالفعـل برزت — تحت إلحاحى — أمام ذهنها تدريجا صورة ما . وكان هذا البروز جزئيا ، وعلى مراحل ، وفى تلكؤ شديد . وكان المشهد الذى تراءى لها بهذه الصعوبة يمثل حجرة المـائدة فى البيت الذى تعمل به ، حيث كانت مع الطفلتين فى انتظار عودة السيدين من المصنع لتناول الغداء :

— كنا جميعا جلوسا حول المـائدة : السيدان والمربيـة الفرنسية ، ومدبرة البيت ، والطفلتان ، وانا . ولكن هـذا شبيه بما يحدث كل يوم ..

— واصلى تأمل المشهد الذى برز أمام ذهنك ، فسوف تكبر هذه الصورة وتتضح ، وتغدو أكثر تحديدا ودلالة !

— اجل ! معنـــا بالفعل ضيف ! إنه رئيس الحسابات . وهو شيخ مسن ، شغوف بالطفلتين وكأنهما حفيدتاه . ولكنه يحضر إلى الدار لتناول الغداء فى أحايين كثيرة ، فليس فى هذا أيضا مغزى خاص ..

— اصبرى وثابرى على تأمل الصورة التى برزت امـــام عين ذاكرتك ، فلابد ان شيئا معينا سيحدث ..

— ما من شىء يحدث . ها نحن ننهض عن المائدة . وها هما البنتان تسلمان مودعتين للانصراف . وتصعدان كالعادة إلى الطابق العلوى .

— ثم ماذا ؟

— انها لمناسبة خاصة بعد كل شىء ! هأنذا اتعرف على المشهد الآن . فبيما كانت الطفلتان تلقيان تحيتهما للانصراف حاول رئيس الحســـابات ان يقبلهما . واستشاط مخدومى غضبا وصرخ فى وجه الرجل فعلا ، صـــائحا به : « لا تقبل الطفلتين ! » .. وشعرت بطعنة فى قلبى . ولما كان السيدان فى تلك اللحظة قد شرعا فى تدخين السيجار ، فقد التصقت رائحة ذلك الدخان بذاكرتى !

هذا إذن مشهد ثان كان كامنا فى طبقة من النفس ابعـــد غورا من سابقتها ، ولكنه كالمشهد الاول سواء بسواء ، من حيث انه قام بدور الصدمة وخلف وراءه رمزا تذكاريا . ولكن إلى اى شىء ترجع فاعلية هذا المشهد ؟

وسالت الآنسة لوسى : « أى المشهدين وقع فى زمن سابق

على الآخر : مشهد التدخين فى غرفة المـــائدة ، أو المشـــهد الذى احترق فيه البودنج ؟ » .

— بل هذا المشهد فى حجرة المـــائدة الذى حدثتك بخبره الآن ، كان اسبق فى الزمن على مشهد البودنج المحروق بنحو شهرين .

— إذن لمـــاذا شعرت بتلك الطعنة فى القلب حينما أوقف والد الطفلتين ذلك المحاسب المسن عن تقبيلهما ؟ فى حين أن توبيخه وزجره لم يكونا موجهين اليك !؟

— لم يكن محقا فى صياحه وزجره لشيخ مسن من اعـــز اصدقائه ، ثم انه فوق هذا وذاك كان ضيفا عليه فى داره . وكان بوسعه أن يقول ما يريد بهدوء .

— إذن فهـــو العنف واللهجة الحادة ما آلمك ؟ اشعرت بالضيق والحرج لأجله ، ام عساك قلت فى نفسك : « لئن كان بوسعه ان يكون بهذا العنف الشديد فى صدد شىء هين كهذا ، ومع صديق قديم ، وضيف تجب له الرعاية والتكريم ، فمـــا احراه إذن ان يكون اشـــد إمعانا فى العنف معى لو اننى كنت زوجته ! » .

— كلا ! ليس الأمر هكذا .

— ولكن له صلة على كل حال بعنفه . اليس كذلك ؟

— بلى . وبصدد تقبيل الطفلتين . فقد كان يكره ذلك على الدوام .

قبلة الضيفة على فم الطفلتين !

وشرعت بعد الوصول إلى هذه النتيجة (أعنى المشهد الثانى من المشاهد المطمورة المكونة للصدمة) امارس معها طريقة الضغط على يدها وهى مسترخية مغمضة العينين ، تحت إيحاء بتذكر مزيد من الصور والمشاهد ، وإذا بمشهد ثالث — اسبق زمنا ايضا من المشهدين السابقين — يبرز أمام ذهنها : وكان هذا المشهد الصدمة الفعالة حقا التى أضفت على مشهد حجرة المائدة ورئيس الحسابات المسن فاعليته التى جعلت منه صدمة ظاهرية :

وقد وقع هذا المشهد الثالث قبل مشهد حجرة المائدة السالف ذكره ببضعة اشهر ، حينما حضرت سيدة من معارف مخدومها للزيارة ، وعند انصرافها قبلت الطفلتين على ثغريهما . وكان والدهما حاضرا ، بيد أنه تمكن من كبح لسانه عن توجيه اللوم أو المنع إلى السيدة الضيف . ولكنها ما أن غادرت الدار حتى انفجرت مراجل غضبه المكظوم على راس المربية المسكينة «لوسى» ، وقال لها أنه يعتبرها مسئولة لو ان اى شخص قبل الطفلتين فى فمهما . وان واجبها الا تسمح بذلك ، وسوف تكون مذنبة بواجبها إن هى اذنت لأى إنسان أو تركته يصنع ذلك الصنيع .. وانذرها انه سيعهد بتربية طفلتيه إلى غيرها إن تكرر ما حدث !

وقد جرت أحداث هذا المشهد فى الفترة التى كانت فيها لا تزال على اعتقادها بأنه يحبها ، ولذا كانت تعيش على امل ، بل على توقع ، أن يطلب إليها الاجتماع به مرة اخرى

لتبادل الحديث الودى عن البنتين . وإذا بهذا المشهد يحطم آمالها ، فقالت فى نفسها :

— لئن كان فى مقدوره أن ينفجر غاضبا فى وجهى على هذا النحو ، موجها إلى التهديدات لأمر تافه كهذا — لا يمكن أن أكون مسئولة عنه بأى شكل من الأشكال — فأنا إذن مخطئة فيما جنح إليه ظنى من حبه إياى . ومن رابع المستحيلات أن يكون قد طاف بوجدانه اى شعور دافىء نحوى ، وإلا لمنعه هذا الشعور من زجرى بغير حق ، ولعلمه كيف يعاملنى بمزيد من الرعاية والتلطف !

وكان هذا الأثر الأليم بغير شك هو الذى عاودها فى صورة طعنة أصابت القلب منها عندما حاول رئيس الحسابات تقبيل الطفلتين ، فزجره والدهما .

الكابوس .. الذى تبدد !

وبعد هذا التحليل الأخير بيومين ، جاءت الآنسة لوسى لزيارتى التالية ، فلم أستطع منع نفسى من سؤالها :

— ما الذى جرى فجعلك تبدين سعيدة بهذه الصورة ؟

والحق انها كانت تبدو كما لو كانت شخصا آخر ، فهى باسمه الثغر رافعة الرأس ، حتى لقد ومض فى ظنى أنى ربما اكون اخطأت تصور الموقف ، وأن مربية الطفلتين صارت أخيرا — رغم كل افتراضاتى — خطيبة والدهما !.. ولكنها بددت هذا الظن قائلة :

— لم يحدث شىء . كل ما فى الأمر ان الفرصة لم تتح لك كى ترى وجهى الحقيقى ، فأنت لم تر منى إلا عليلة واهنة الهمة مكتئبة مكروبة .. بينما انا فى حالتى الطبيعية مرحة

على الدوام . وعندما صحوت صباح أمس الفيت نفسى خالية البال ، وقد انجاب عن راسى ما كان يعانيه من ثقل ملازم له منذ زمن ، وشعرت بأنى صرت صحيحة النفس ، ناعمة بالسكينة . وأنى لكذلك منذ تلك اللحظة ، متفتحة للحياة .

— وماذا عن مطامحك ومشروعاتك المستقبلة بالنسبة للدار ومن فيها ؟

— ذهنى مستقر تماما وبكل وضوح فى هذا الصدد . فانا مدركة كل الادراك انه لا مطمح لى يتجاوز وضعى الراهن فى ذلك البيت ، ولن أشقى نفسى أسفا ولا تحسرا على شىء من هذا !

— وهل تراك ستتعاملين مع الخدم الآن بغير متاعب ؟

— اعتقد ان فرط حساسيتى كان المسئول الأوحد عن معظم ما حدث بينى وبينهن .

— ومخدومك ؟ اما زلت تحبينه ؟

— بلى ! انى احبه قطعا . ولكن هذا لا يقدم ولا يؤخر فى الموضوع . ففى وسعى بعد كل شىء ان احتفظ لنفسى بافكارى ومشاعرى الخاصة .

وعندئذ فحصت أنفها فتبينت ان حساسيته للألم وللاثارة قد ارتدت طبيعية تماما على وجه التقريب . وصار فى مقدورها ايضا ان تميز بين الروائح ، وإن كان هذا التمييز غير حاسم ، ولا يحدث الا فى حالة الروائح القوية . وليس فى

مقدورى ان احدد إلى أى مدى كانت علتها الأنفية (الالتهاب المزمن التقيحى فى الأغشية المخاطية) ذات اثر فى إضعاف حاسة الشم لديها بهذه الصورة .

.. وشفيت المريضة نهائيا من الهستريا !

وقد استغرق علاج مس لوسى بالتحليل تسعة اسابيع ، من مبدئه إلى منتهاه . وبعد اربعة اشهر التقيت بمريضتى السابقة مصادفة فى احد المصايف ، فوجدتها منشرحة الصدر مرحة ، واكدت لى ان شفاءها لم تضطرب معالمه ، وان النوبات الهستيرية الشمية لم تعاودها على الاطلاق !

ولست ميالا للتقليل من اهمية هذه الحالة التى وصفت مراحلها آنفا ، مع ان المريضة لم تكن تعانى إلا من هستيريا خفيفة ، قليلة الأعراض . ذلك انى اعتبر هذه الحالة انموذجا لذلك النمط من الهستيريا الذى يمكن أن يصاب به شخص تخلو وراثته من الإصابة بأى نوع من انواع الهستيريا ، وان تأتى إصابة هذا الشخص نتيجة خبرات او ضروب من التجربة عنيفة الأثر . ولست اعنى بخلو اسلاف الشخص من الهستيريا انه خال شخصيا من كل استعداد للاصابة بها . فما من هستيريا — مها كانت خفيفة ، كما فى هذه الحالة — يمكن ان تصيب شخصا ، ما لم يكن لديه استعداد بتكوينه النفسى للاصابة بها . وكل ما هناك ان الاستعداد الكامن لا يمكن التعرف عليه قبل أن تحدث الإصابة فعلا ..


THE INVISIBLE
CURTAIN
By J. ANTHONY
"سندريلا" الخاطئة!
قصة "حالة" نفسية واقعية أخذها الكاتب
الأمريكي "جوزيف أنتوني" عن سجلات العالم النفساني
الدكتور "لويس موبخري"

كان ذنبها انها خلقت .. انثى !

عندما يفضل الأبوان الذكر على الأنثى ــ فى اولادهما ــ يزعم أن زلات الولد لا تلطخ اسم الأسرة بالعار الذى تجره عليه زلات الابنة .. وعندما يرهق الأبوان ابنتهما الطفلة بالشك فى علاقاتها مع اقرانها فى السن ، ولو كن من البنات .. عندما يفعل الأبوان هذا وذاك ، هل يخطر لهما ببال ان سياستهما هذه مع ابنتهما ، قد تقودها ــ حين تكبر ــ إلى الفجور ، وتحيل حياتها إلى حماة تكون هى أول مشمئز من أسنها ، وأول كاره لقذارتها ؟!

أن مأساة « فاى » ــ التى استخرجها لنا الكاتب الأمريكى « جوزيف انثونى » من سجلات المحلل النفسانى الدكتور « لويس مونجمرى » ــ درس لكل أبوين رزقا ابنة .. وخير الدروس هو ما اخذ عن الحياة الواقعية !

خبل يثير الانقباض

كان التقرير الطبى يصف « فاى ليندستروم » بأنها سوداوية المزاج ، ميالة للاكتئاب ، تعتقد ــ منذ عامين ــ بأنها صريعة داء بشع ، تخاله سرطانا ــ فى بعض الأحيان ــ وسلا فى احيان اخرى .. على ان منظرها لم يكن يدل على

اكتئاب ، بل ان عينيها الزرقاوين النفاذتين ، كانتا تطلان على العالم بنظرة تنم عن أن صاحبتهما كانت تجد فيه تسلية ممتعة .. وكانت فى حوالى الثانية والثلاثين من عمرها ، نحيلة الخصر ، رشيقة ، شقراء ، ذات خفر يهفو بالقلوب ، ويحيط بها جو من البراءة والسذاجة !

وتلكأت عند باب حجرة المحلل النفسانى ــ الذى لم تكن قد عرفته من قبل ، اللهم إلا خلال التليفون ــ حتى إذا التقت عيناها بعينيه ، قالت : « أنا فاى ليندستروم .. الفتاة التى تريد ان تعرف كل اسرارها ! » .. وانسابت بخفة إلى مكتبه ، ثم اردفت : « اهذا هو التقرير الطبى ؟ .. هل تطلعنى عليه ؟ » . وناولها التقرير ، فتجاهلت المقعد الذى دعاها إليه ، وجلست على حافة المكتب ، وراحت تقرأ ، ثم قالت : « إذن فليس ثمة داء بدنى ؟ .. كنت أوثر أن يكون الخلل بدنيا عن أن يكون عقليا ! » . فقال الطبيب : « عاطفيا أو نفسيا .. أصح ! وليس فى هذا ما يمس العقل والذكاء فى شىء ! » .

وانزلقت « فاى » عن المكتب ، فجلست فى مقعد بجواره ، وقالت : « أرى انك تترفق بى ، ولكنى أوتيت من العقل ما يكفى لأن أوقن من أننى مصابة باختلال ما .. لك أن تسميه « خبل عقلى مقبض للنفس » ! ذلك لأننى أصاب احيانا بضيق كفيل بان يدفعنى إلى الانتحار ، لو أننى أوتيت عقلا يمكننى من التفكير فى وسيلة لذلك .. لقد قرأت عن الخبل المقبض ، ولدى كل اعراضه . وانصت المحلل النفسانى ، ثم قال :

« ارجو أن لا يسوءك أن اقول لك انك مخطئة ، فليس بوسع شخص غير أخصائى أن يفهم الكتب العلمية الفنية ! » .

ـ انك تحاول أن تموه على .. افكنت تصـارحنى إذا وجدتنى مصابة بخبل مقبض ؟

ـ لا ، ولكننى كنت أحيلك إلى طبيب مختص بالحـالات العقلية النفسية .

ـ إننى على كل حال أشعر بالأعراض .. أشعر باننى شقية ، وأحس احيـانا بثقل يجثم على صدرى فلا اكـاد اطيقه !

ـ إذن ، تعالى نبحث عما يسبب ذلك !

مومس تعتد بمهنتها !

وعـنـدما استقرت « فاى » على الأريكة لأولى جلسـات التحليل ، سوت ثوبها بعناية وكأنها تحرص على أن لا تكشف شيئاً من ساقيها حتى لا تخدش الحياء ، وظلت تحـدق فى السقف برهة ، ثم سددت بصرها إلى المحلل النفسـانى ، وقالت : « هنـاك امر يجب أن تعـرفه ـ قبل كل شىء ـ ولكننى فى حيرة من اختيار لفـظ رقيق للتعبير عنـه ، ولذلك فسأقوله لك بصراحة .. لقد كنت مومسا ! » .

وراحت تحملق فى لهفة ، وكأنها القت قنبلة . ولكن المحلل لم يبد أى رد فعل ، بل ظل ينتظر بقية حديثها فى صـمت . فلما ابدت سخطها لجموده ، قال لها : « لمـاذا تحاولين أن

تثيرى انفعالى ؟ » . فابتسمت فى إعياء وقالت : لست أدرى .. إن نصفى يتوق إلى أن يبرح هذا المكان، كما لو كنت أهرب من جحيم .. ونصفى الآخر يريد أن يذهب معك إلى آخـر الشوط ، وأظنه النصـف الذى سيتغلب . فعم تريدنى أن اتحدث ؟ » .

ونصحها المحلل النفسانى أن تقول كل ما يرد على ذهنها ، فقالت : « أن أول ما يخالجنى هو انك تموت شوقا إلى أن تسمع قصتى كمومس ، ولكنك لا ترى من كـرم النفس أن تسالنى عنهـا .. بيد أننى لا أخجـل من ذلك !.. بل اننى بمهنتى ساعدت بعض الناس مساعدة لا تقل عما تفعله أنت بمهنتك ! » . ومرة أخـرى ، توقعت أن تثيره كلماتها ، فلما لم تهزه عادت تقول : « لم أرد أن اذهلك ، بل اننى عنيت كل كلمة مما قلت . اننى اعتقد ان المومس الأمينة ، السليمة ، ذات نفع كبير فى هذه الدنيا . فليس كالمومس فى التسرية عن الرجل إذا كان وحيدا ، أو مهموما ، أو خائفا . ومن الجدير ان يعترف بها كطبيبة ذات اختصاص معين ! واحب أن تعرف اننى لم اهجر الدعارة لأسباب خلقية ، وإنما كان الباعث هو اننى فقدت ـ منذ خمس سنوات ـ السيطرة على اعصابى، فاذا استطعت أن تساعدنى على استردادها ، عـدت إلى الانضمام لبنات الهوى ، ودعوت لك بين عملائى ! » .

وإذ اخفقت مرة أخرى فى اثارة العالم النفسانى ، اخلدت إلى الصمت برهـة ، ثم قالت : « لست احاول أن أهزك ، فالواقع اننى ظللت مومسا حوالى أربع سنوات ، ولست

اخجل من ذلك . بل اننى اكن لاية مومس من الاحترام ما يفوق كل ما اكنـــه لجميع الاخصائيين الاجتماعيين .. اننى لاتذكر ان ابى راح يحاضرنى مرة عن « النساء المضيعات » ، دون ان افقه شيئا من قوله ، ولو اننى استطعت ان اقابل هـــذا المخرف الهرم اليوم ، لقلت له ان ليست هناك نساء مضيعات، وإنما هناك .. نســـاء لا يضعهن المجتمع فى المكانة اللائقة بهن ! » .

الشعور الذى يحبه الرجال

وظلت « فاى » اسابيع عدة ، لا تخوض حديثا اللهم إلا « مهنتها » ، ظنا منها ان البـــوح بأحدث تجاربهـــا ذو اثر علاجى ، كما يخيل لمعظم رواد العيادات النفسية . ولم تذكر — خلال ذلك — سوى لمحات خاطفة عما ادى بها إلى ان تكون مومسا .. ولم يتجاوز ما ذكرته : انها كانت يوما زوجة لرجل موسر ، وانها جرحت كرامته بطريقة ما ، فطردها من بيته فى ازدراء ، ودون إشفاق !.. ولكنهـــا روت الكثير عن مئات الرجال الذين اتصلت بهم فى مهنتها ، من افراد يبدون للمجتمع كمواطنين صالحين ، إلى افراد ذوى مراكز عالية ، يخشون ان يفقدوا مكانتهم ولكن حب المغامرة يتغلب على خوفهم ، إلى ازواج يخونون زوجات لم يفهمنهم ، او فهمنهم اكثر مما ينبغى !.. اما مسلكها نحوهم فقد وصفته بقولها : « ودائما كنت أعطى كل واحد منهم ما يعوضه عمـــا دفع من نقود ، وما يشـــعره بانه أحرز نصرا ، وما يوحى إليه بانه الوحيد — من عملائى — الذى استطاع ان يغزو قلبى كمـــا غزا جسمى .. فالرجال يحبون ذلك ! » ..

وكان « فاى » تمتـــدح من كانت تسميهن « الزميـــلات السابقات » ثم تردف قائلة : « الشىء الذى لم اكن افهمه ، هـــو : ما الذى كان يدعـــو معظمهن إلى ان يدفعن نصف مكاسبهن ثمنا لحماية ينشدنها من بعض الرجال ذوى الأجسام الضخمة ، والعضـــلات المفتولة ؟.. ان احـــدا من هؤلاء « البلطجية » لم يستطع ان يحصل منى على مليم واحد .. لقد حاول احدهم ان يتعرض لى فى احد المشـــارب يومـــا ، فسببته وسفهته بصوت مرتفع ، سمعه الجميع ، فلم ينبس ببنت شفة ، فرمانى بنظرة مضحكة ، وغادر المكان بحجـــة منتحلة . وإذ ذاك قدم لى صـــاحب المشرب كاســـا على حسابه ، قائلا انه لم ير قط بلبـــلا يتغلب على صقر !.. بيد اننى لم افقه انه كان يطلب « اتاوة » ولا عرفت شيئا عن نظام « الاتاوات » — التى يفرضها « البلطجية » على بنات الهوى — إلا بعد وقت طويل ، لاننى لم اكن اخشى احـــدا ، حتى لقد شاع فى حى الهـــوى اننى كنت على صلة بعمـــدة المدينة .. ولعل « البلطجى » ســـمع ذلك ، فانسحب حين سفهته ! » .

مشكلة الإنسانية الأزلية : الولد والبنت !

ولاح ان « فاى » كانت تنظر إلى ذكريات مغامراتهـــا فى الدعارة — وهى تستعرضها — كما لو كانت أمورا حدثت فى دنيا اخرى ، ولا صلة لها ببقية حياتها .. وكان ما عدا ذلك من ذكريات وآراء ترد عرضا — فى الحديث — وكانها عفـــو الخاطر !.. من ذلك انها روت يوما حلما رات فيه رجلا كان

يسير على بعد خطوات منها ، فأسرعت خلفه ، وربتت كتفه
وهى تعتقد أنه كان زوجها السابق . فلما التفت الرجل إليها ،
تبينت أنه كان أباهـا !.. وعقبت قائلة : « واغـرب ما فى
الأمر ، أن كلارك — اعنى زوجى — كان أبعد الناس شبها
عن أبى ! » .

وكان أبوها قد شغل — لسنوات طويلة — مركزا إداريا
كبيرا ، فى شركة تجارية بالبلدة التى نشأت فيهـا « فاى » ،
ولم يكن يهتم — خارج عمله — إلا بأمرين اثنين: الخمـر ،
والعبادة !.. كان يقبل على الخمر ، ثم يقسـو فى محاسبة
نفسه على هذه الخطيئة ، ويصب سخطه على أول شخص
يقع تحت رحمته ، فكان يتسقط الهفوات لأمها ، فى واجباتها
المنزلية . وكانت أمها تجد لذة فى رد عدوانه بمثله ، فكانت
تؤنبه وتسخر منه وتقول له أنه كان يستمد عقيدته الدينيـة
من زجاجة الخمر ، وكانت وخزاتها هـذه تفحمه وتخزيه
وتشطره إلى ان ينكس راسه ، ثم يبحث عن العزاء فى ..
الخمر !! ويلقى — بعد ذلك — تبعة تصرفه هذا على الزوجة
التى كانت تعيره !

وكانت ذكريـات « فاى » عن أمهـا ، لا تقل مرارة عن
ذكرياتها عن أبيهـا : « كانت إذا رافقتنى فى الحمام ، راحت
تدلك جسمى بأخشن فرشاة لديها ، فكنت أبكى واتوسـل
إليها أن تكف . ولكنها كانت تمضى فى عملها ، قائلة أن البنات
الصغيرات لا يعرفن ما فيه خيرهن ، وأن من الواجب أن يكن
نظيفات .. أما مع أخوتى الذكور الثلاثة ، فكانت غاية فى

اللطف والترفق . ولم تقل لأحد منهم يوما ان الصبية يجب
ان يكونوا نظيفين !.. وكان اغرب ما فى الأمر ، أنها لم تكن
تكف عن تحذيرى من الصبية منذ تفتق ادراكى .. كانت تقول
ان اللعب مع الغلمـان — ولو كانـوا إخوتى — إثم ، فاذا
سألتها عن السبب ، أمرتنى بأن اكف عن السؤال .. على
ان إخـوتى كانـوا رفيقين معى ، وكانوا يسمحـون لى بأن
أشاركهم العابهم ، ويقفون إلى جانبى إذا خشن معى أحـد
غلمان الجيرة فى اللعب ، وهـذا هو السر فى اننى لم انفس
عليهم حريتهم » .

وكان مسلك إخوتها هذا ، يحدث شـيئا من التوازن فى
نفس الصبية الصغيرة ، ويشعرها بأنها عضـو فى الجماعة
التى كانت تحيط بها !

بعد سهرة مع شابين !

وكانت فى هذه الجماعة صبية أخرى تدعى « ايدنا » ، من
لدات « فاى » فى السن .. واستطردت فاى تقول : « كانت
هى الفتاة الوحيدة التى تشاركنى اللعب مع الغلمان ، دون
ان يعاملوها كما لو كانت دمية . وقد توثقت الصداقة بينى
وبينها ، فكنت أفاتحها بأسرارى ، ولكنها لم تبح لى قط بشىء
عن نفسهـا ، وإن لم يحـل ذلك دون أن اشعر بأنهـا كانت
تفهمنى ، وبأن بوسعى أن أفضفض إليها بما يثقل صدرى ..
وعندما بدأت زميلاتنا فى السن ، يشغلن بالخروج مع زملائهن
من الفتيان ، كنت و « ايدنـا » الوحيدتين اللتين اظهرتـا
استقلالا عنهن ، فكان هذا يغرى الفتيان بالتهافت علينـا .

وكانت « ايدنا » ذات روح مرحة ، فكنـــا نتخذ من ارتباكات الفتيان معنا ، مادة للضحك .. وفى ذات مرة ، هبط البلدة « سيرك » ، فذهبت مع « ايدنا » إليه . وظلت صديقتى طيلة الوقت تقارن بين الحيوانات وبين الفتيان الذين كنا نعرفهم ، ونتخذ من هذا مادة للضحك ! » .

وفى ذات مساء — وقد بلغت الفتاتان السادسة عشرة — ذهبتا معا للقاء شابين اصطحباهما إلى « السينما » ، ثم إلى ناد ليلى كبير فى بلدة مجاورة . وكانت نجمة الملهى ثقيلة الظل. فلما عادتا من السهرة ، ذهبتا إلى دار «ايدنا» — او «ايدى» كما كانت تدلل — شرعت هذه تقلد الفتى الذى كان معجبـــا بفاى . ثم تجردت من ثيابها ، وراحت تقلد الراقصة التى كانت فى الملهى ، تقليـــدا دقيقـــا ، بارعا . اما « فاى » فان الشراب أهاج معدتها ، ولكنها خجلت من ان تذكر لصديقتها انها كانت توشك أن تتقيأ ، فأسرعت تغـــادر الدار والفتـــاة منهمكة فى تقليد الراقصة . واغضب هذا التصرف « ايدى » ، فخاصمت « فاى » ، وابت أن تسمع اى تبرير حاولت — فيما بعد — أن تفسر به ما جرى .

واردفت فاى — بعـــد هـــذه الذكريات — قائلة : « من العجيب أن يضايقنى أمر كهذا ، بعد كل السنين التى انقضت .. اننى لا اتورع عن أن اكون جافة مع من يكونـــون جافين معى ، ولكنى اكره أن أوذى شعور شخص لم يبادرنى بأية إساءة .. اننى آسف لهذا اكثر مما آسف لما يسمونه إثمـــا وخطيئة !.. على أن ثمة ما يعلل تذكرى هذه الواقعة . ذلك

اننى وجدت أبى وأمى فى انتظارى حين عدت إلى دارنا ، فلم تنبس أمى بكلمة ، وإنما القتنى على ركبتيها ، وراحت تضربنى بفرشاة للشعر .. وكنت مضناة منهوكة القوى ، فلم أحفل بشىء ولكنى فكرت فى الأمر — فيما بعد — فاستنكرته ! » .

الطريق إلى المغامرات الغرامية

واستطردت فاى فى حديثها قائلة : « أما أبى ، فقد اثـــار ضجة ، عندما حان دوره . إذ اراد أن يعرف أين كنت ، وماذا فعلت . ولم ينصت إلى إجاباتى ، بل بدا أنه كان قـــد كون لنفسه رأيا من قبل ، إذ راح يلقى محاضرة أحسبه كان قـــد قضى الليل كله فى اعدادها .. محاضرة وصفنى فيهـــا بأننى فاجرة ، واننى مطية الشيطان ، واننى كنت أمرغ فى الوحل اسما كان يعمل على أن يبقيه شريفا نظيفا — وقد خطـــر لى — فيما بعد — انه كان يغســـله بالخمر ! — وذكر اننى كنت اوشك أن استنزل نقمة الله على الأسرة ، وعلى البلدة كلهـــا فتصبح رمادا كما كانت سدوم وعمورة ! » .. وقـــد ورد فى التوراه أن الله نقم على بلدتى سدوم وعمورة بسبب الشذوذ الجنسى ! وقد كان رد فعل هذه المعاملة التى لاقتها « فاى » من أبويها ، أن أقدمت — فى اليوم التالى — على أول مغامرة جنسية لها ، لتعبر عن غيظها مما فعله أبواها !

ووصفت الفتاة كيف استدرجت زميلها الذى كان معجبـــا بها ، وأسلمته نفسها ، ثم قالت : « كانت مغـــامرة مثيرة .. لا لشىء إلا لأنها كانت تعتبر إثما !.. وقد كررتهـــا مع الفتى عدت مرات ، ولكنه أفسد المتعة بأن تدله فى غرامى ، وراح

يلح على ان نبوح لأسرتينا برغبتنا فى الزواج ، ولكنى لم اكن احبه إلى هذه الدرجة ، فنفضت يدى منه ! » .

ارسلها ابوها — بعد دراستها الثانوية — إلى كلية كانت معروفة بنظامها الشديد ، ولكنها خاضت مغامرات أخـرى ، مع عدد من الشبان .. « ولكنى كنت أعتبر كل ذلك جـزءا من تعليمى ، كالتاريخ والجغرافيا ! » . ولم تتم دراستها فى الكلية ، بل حصلت على عمل كتابى فى بلدتها ، فأبدت تفوقا جعلها — بعد شهور قلائل — رئيسة على ست من زميلاتها . ولكنها — رغم ذلك — كانت قلقة ، متذمرة ، ضجرة ! وعندما اقبل صيف ذلك العام ، زعمت لوالديها أن زميلات لها دعونها لقضاء عطلة آخر الأسبوع معهن ، ورحلت إلى مركز سياحى — على مقربة من بلدتها — به فندق و « كازينو » للمقامرة . ولذ لها ان تشهد الناس وهم يقامرون .. وفى قاعة اللعب ، التقت بشاب فى أواخر العقد الثالث من عمره ، بدا انيقـا ، مهـذبا .. وكان يقامـر بمبـالغ كبيرة ، دون أن تصـدمه الخسارة ، أو يهزه الربح . وعندما همت بأن تبارح القاعة ، قال لها : « ارجو ان تمكثى ، فان وجودك طالع سعد لى ! » .

تواصل شهر العسل رغم موت أمها

وقالت « فاى » معلقـة على ذلك : « لم اكن من الخجل بقدر ما بدوت عند ذاك ، ولكنى كنت منفعلة ، إذ بدأت أجرب فتنتى فى المجتمع الكبير ، الذى لم أكن قد ألفته بعد .. ولكننى كنت مصممة على ان العب دورى ! » .. وإن هى إلا دقائق ، حتى تبين الشاب أن الفتاة ذات العينين النجلاوين والأهداب

الطويلة ، كانت أجدر من الميسر باهتمامه ، فدعاها إلى العشاء .. وقبلت متصنعة الحـرج ، مشترطة أن لا يستبقيها إلى ساعة متأخرة .. « وكان أعزب ممن يحومون حول النساء .. ومثل هذا الصنف يتطلع دائما إلى زهرة لم تستكمل تفتحهـا تماما ، ولا يزال الندى عالقا بأكمامها .. ولم أر ما يدعو إلى أن أخيب ظنه ! » .

وكان « كلارك ليندستورم » — وهو اسم الشاب — رئيسا لشركة لبيع الأوراق المـالية ، وذا دخل يمكنه من أن يعيش فى رفاهية ، فى ضاحية من أفخم ضواحى نيويورك . وقد تدله فى حب « فاى » ، وراح يتهافت عليها ، فكانت بارعة فى رسم سياستها نحوه — ما بين إقبال وصد — حتى أنه عرض عليها الزواج ، بعد أشهر قلائل من لقائهما الأول . ولكنها استبقت العرض معلقا زهاء سنة ، وعللت ذلك بقولها : « لعل غريزة خفية أوحت إلى بأنه لن يترتب على هذا الرباط خير ما !.. وإن كنت قد عرفت من البداية اننى قد أتزوج الشاب ، ولكننى لن اتدله فى هواه ! » .

وكانت فى العام الحادى والعشرين من عمرها — وهو فى الأربعين — حين تزوجا . فطاف بها أوربا فى شهر العسل . ولقد تلقت — خلال الرحلة — برقية تنعى إليها أمها ، إذ ماتت صريعة السرطان ، فتكتمت النبأ عن زوجها إلى أن عادا إلى نيويورك . وعندما أبدى عجبه لكتمانها نبأ كهذا ، تعللت بأنها لم تشأ أن تفسد عليه بهجة الرحلة !.. « وما عرف أننى كنت فاجرة ، مطية للشيطان حقا ، كمـا قال أبى .. فان أمى لم تبد لى حبا يوما ما ، ولا أنا أبديت نحوها حبا ، بدورى ! » .

« سندريلا » والأمير الفاتن

ولم يكد الزوجان يستقران فى البيت الفاخر ، حتى انقلبت حياتهما إلى سلسلة من الشقاق والصلح . وزعمت « فاى » ان كل شقاق كان يبدأ بعمل تقوم به لخير زوجها ، فيساء تفسيره .. كان « كلارك » يكره — مثلا — الاسفاناخ والخرشوف ، ولكن « فاى » كانت توقن من انهما مفيدان له ، فكانت تصر على تقديمهما له . وكانت تؤمن بأن عمله يستلزم ترفيها واختلاطا بالناس ، فكانت تكثر من إقامة الحفلات الكبرى ، وكان «كلارك» يشكو من أن ذلك يحرمه من ان ينام ساعات كافية .. كما انه كان السباق دائما إلى الصلح ، بعد كل شقاق ، ولكن هذا كان يثير « فاى » . كانت توقن بأن الحب هو محفزه على ذلك ، ولكنها كانت ترى فى عمله إذلالا لها ، إذ كان يبديه اسمى منها وأرفع !

وإذ أبدى المحلل النفسانى عجبه من ذلك ، قالت : « اجل ، لقد كان يعتذر دائما ، رغم ان اى امرىء كان خليقا بأن يرى انه كان تعتقد بأنه على حق فى غضبه . وكان يبادر إذا ما رآنى اعجب بشىء إلى شرائه فورا . وكنت مضطرة دائما إلى ان ابدو مقصرة فى عرفان جميله .. كان لا يكف عن ان يبدى لى حبه ، وعن ان يسألنى عما إذا كنت ابادله الحب بنفس القوة ، فلم اكن املك ان اعبر له عن حبى بالشكل الذى يرضيه !.. لقد كنت إنسانا أنا الأخرى !.. كنت زوجة صالحة له ، كما كان زوجا صالحا لى .. كنت ادبر له شؤون بيته ، وأوفر له كل ما يريحه ، وارعى صحته .. ولم اكن من

أولئك الزوجات اللائى ينغصن حياة أزواجهن ببرودهن الجنسى .. كان كلما اشتاق إلى ، وجدنى رهن يديه ! » .

وذكرت أنها لم ترتكب اى خطأ يشكو منه ، سوى مرة واحدة . واستطردت : « ولكنه أمر ليس بوسع احد ان يقدره أو يفهمه ! » .. وارتجفت شفتاها ، وصمتت برهة ، فلم يشأ المحلل النفسانى أن يضغط عليها . وظلت هى تغالب نفسها بضع دقائق ، ثم ابتسمت ، وقالت : « أتعرف ما كنت أفكر فيه الآن ؟.. تمنيت أن أكون مؤلفة ، فهناك قصة واحدة أتمنى أن اكتبها . هل تتذكر أن قصة « سندريلا » تنتهى بزواج الفتاة من الأمير الساحر ؟.. هنا تبدأ قصتى ، فأنا أمثل كيف كانت « سندريلا » سعيدة فى البداية ، مزهوة بحب الأمير الساحر ، حريصة على أن تقدم له كفايته من الفيتامينات ، وأن تسير شؤون بيته بدقة ، وأن تحافظ له على اتصالاته الاجتماعية ، وأن ترفه عنه متاعب العمل إذا ما عاد فى المساء .. كانت « سندريلا » ترى أن الأمير الساحر فاتن ، وكان يطربه أن يسمع منها ذلك ، ولكن الذى ضايقها أنه كان يريدها على أن تردد ذلك دائما ، حتى سئمت وضاقت وتمنت لو أنه لم يكن معتدا بسحره وبنجاحه فى الحياة .. وكانت ترجو أن تشعر — هى الأخرى — بكيانها كانسان ! » .

مع سائق السيارة .. فى سرير !

ولاذت بالصمت برهة ، ثم قالت : « عندما انباتك يا دكتور باننى كنت مومسا ، لم يطرف لى جفن .. ولكننى اشعر بارتباك إذ اهم اخبرك بما حدث . على انه إنما حدث لاننى

كنت أعمل جاهدة على إرضاء مولاى . فلقد كان يحب البيض نصف المسلوق ، ذا المح المائع . وفى ذات صباح ، تركت البيض على النار اكثر مما يجب — إذ كنت اعد له الفطور بنفسى — فجمد المح ، وإذا بكلارك يثير شجارا حاميا ، ويصيح بانه كان من الخليق بى ان ادع للطاهية امر اعداد الفطور ، إذا كنت لا أعرف كيف أسلق البيض !.. ولم أجبه ، ولكن لهجة التعالى والترفع والسيادة غاظتنى ، فشعرت بأننى أوشك ان انفجر . ورافق النحس كل حركاتى فى ذلك اليوم ، فكسرت تحفة خزفية ثمينة ، واستعصى على فتح درج خزانة الثياب فرحت أعالجه بعنف حتى سقطت مرآة الخزانة فتهشمت ! » .

ولجأت أخيرا إلى غرفتها ، فراق لها أن تستدفىء . وأقبل « كارلو » — وكان خادما وسائقا للسيارة ، فى آن واحد — ليشعل النار فى المدفأة . ودار بينهما حديث ، اعربت خلاله عن عجبها من انه كان يعامل كلارك معاملة العبد الرقيق للسيد ، فقال لها «كارلو» إن أكل العيش كان يتطلب ذلك ، وانه لم يكن يرى فى هذا المسلك ما يضيره .. « فقلت له إننى كنت اجد فيه ما يضيرنى انا ، لاننى كنت أرى فيه رجلا لا يقل فى شىء عن كلارك ، إن لم يكن افضل منه !.. وكنت فى قميص النوم وحده ! » .

وهكذا حل كارلو محل كلارك فى سريرها فى ذلك اليوم ، وكان عنيفا ، وكأنما أراد ان يشعرها بانه كان السيد صاحب السلطان فى ذلك الوضع .. وأصبح برنامجه اليومى — بعد

ذلك — أن يقل « كلارك » إلى المحطة فى كل صباح ، وهو يبدى له كل فروض الطاعة والاحترام ، ثم يعود فيلازمها فى السرير ، إلى أن لا يصح ثمة وقت سوى ما يكفى لأن يسرع بارتداء ثيابه ، وقيادة السيارة إلى المحطة ليقل كلارك فى عودته .. ولقد أوشكا أن يفتضحا مرة ، إذ عاد كلارك مبكرا عن موعده ، واستقل سيارة اجرة إلى البيت .. ولم تنقض دقيقة على مبارحة « كارلو » المخدع ، حتى دخل « كلارك » البيت !

طلاق .. ثم انزلاق !

واستطردت « فاى » قائلة : « ولكن ضميرى الاحمق - ولا شىء غيره — هو الذى جلب على المتاعب . فلقد أحببت كلارك رغم انه كان يثقل على اعصابى ، فبدأت آسف لما كنت أرتكب . ويبدو أن أسفى بدا فى تصرفاتى ، فقد انبأنى كلارك يوما بأننى اصبحت — فى الفترة الأخيرة — مفرطة الحنان واللطف ، وانه لذلك صار يعبد الأرض التى تطأها قدماى .. وهفا كلامه بأعصابى ، فشئت أن أثبت له أن حبى لا يقل عن حبه ، واننى لذلك لا أستطيع أن أخفى عنه امرا ، مهما يكن .. واعترف له ، فما ان عرف اننى كنت اخونه مع « كارلو » ، حتى راح يصرخ : « السائق !.. لقد ضاجعت السائق ! » .. كأنما كان السائق حيوانا !.. ووجدتنى أقول له إن السائق كان إنسانا مثله ، فأوشك ان يخنقنى . ثم تحول يجرد يدى من المصوغات ، وجرنى عبر الحجرة ، وطردنى من الدار دون أن يسمح لى بأن آخذ شيئا سوى الثياب التى كنت ارتديها ، ودولارات قليلة كانت فى جيبى ! » .

وقضت « فاى » ليلتها تلك فى فندق صغير . وما لبث « كلارك » – من ناحيته – ان طلب الطلاق ، وفاز بحكم لصالحه . وفى ذلك الاثناء ، اعتادت « فاى » أن تخرج فى جولات ليلية لتغالب الارق ، فقدر لها ان تشهد فتيات الليل ، وكيف كن يتصيدن الرجال ويصطحبنهم إلى الفنادق الصغيرة .

ومضت تقول : « واوحى لى هذا بطريقة اغيظ بها « كلارك » .. تلك هى أن اغدو مومسا ، وأن امرغ اسمه فى الوحل ، فقد كان من حقى أن أسمى نفسى « مسز كلارك ليندستروم السابقة ! » . وراحت تتكلم عن ذلك فى لهجة متشفية ، حاقدة .. ووصفت كيف كانت تسعى لتقع فى ايدى البوليس ، حتى تعترف امام القضاء بأنها مومس ، فتنتشر الصحف اسمها واعترافها ، وتلطخ اسم زوجها إلى الابد . ولكن احدا من رجال البوليس لم يعترض لها .. « ولعلهم كانوا يعتقدون – هم الآخرون – ان عمدة المدينة صديقى ! » .

اثارها ان زوجها كان اسمى منها !

وكان امتع لحظاتها ، يوم رات زوجها فى بهو احد الفنادق الصغيرة ، فتعمدت أن تحوم – على مشهد منه – حول رجل ثمل ، وأن تعرض عليه نفسها كمومس ، وتذكر له – بصوت سمعه كلارك – ان اجرها خمسة وعشرون دولارا . ولكن « كلارك » لم يهتز ولم ينبس ببنت شفة ، مما دفعها – فى اليوم التالى – إلى أن تذهب إلى مكتبه ، وتحاول أن تقابله ، لتتعرف وقع عملها على نفسه . ولكنه اوفد سكرتيرته لتعتذر عنه ، وقد حملت منه رسالة قدمتها إليها ، فلم تكد تفضها –

بعد أن بارحت المكتب – حتى وجدت فيها ورقة بيضاء ، طويت على ورقة من فئة الخمسة والعشرين دولارا .. وكأنما أراد أن يبين لها قيمتها .. القيمة التى عرضت بها نفسها على الرجل الثمل !

واغتصبت ابتسامة واهنة ، ثم قالت : على أن هذا كان كافيا لبيان شعوره .. لقد ادرك أننى أصبحت مومسا بفضل تخليه عنى ، وكان هذا كل ما أحفل به ! » .

والنفس كسطح الماء ، إذا القيت إليه بحجر ، انداح فى دوائر واسعة ، لا تلبث أن تضيق رويدا ، حتى يرين الماء إلى السكون .. كذلك كانت نفس « فاى » – اثناء علاقتها بزوجها – ما إن اعترضها حادث ، حتى راحت انفعالاتها تتذبذب ، ثم تركزت فى كراهية عمياء ، نحو زوجها . وكان الحادث الذى اثار نفسها فى البداية ، انها طردت خادما كان « كلارك » قد استخدمه منذ امد طويل ، لتعين مكانه خادما إنجليزيا راقيا ، تشبها بالاسرات الكبيرة .. وتوقعت أن يشكرها « كلارك » لذلك ، ولكنه غضب أشد الغضب .. « ثم صفح عنى .. كنت دائما اتلقى منه « الصفح » عن أمور كنت افعلها لمصلحته وخيره ! » .

وراحت « فاى » تسرد كثيرا من الحوادث التى من هذا القبيل ، فتثير الذكريات وتعيد – فى الوقت ذاته – التفكير فى الأمر .. وهنا بدات تفطن إلى ما كان فى تصرفاتها من اخطاء ، فقالت : « لعلى لم اكن زوجة ماهرة – كما اعتقدت فى نفسى – ولكننى كنت صغيرة السن ، وكان « كلارك » يظهر

إدراكه لذلك بأن يغضب ويصفح ، كشخص كبير يعامل طفلة أقل منه شأنا !.. وهذا ما كانت تأباه !

تتعمد أن تفضح أثمها !

وتدافعت الدموع إلى عينى « فاى » لأول مرة ، ولكنها كانت منبعثة عن الغيظ أكثر مما كانت منبعثة عن الأسى ، وقالت : « كنت أرجو أن يعاملنى على قدم المساواة .. لم أكن أحب أن أكون تحت السيطرة . وما فعلت ما فعلت إلا للتخلص من هذا الشعور .. وما كنت لأعترف لكلارك بما كان بينى وبين كارلو لو لم أكن أحبه .. أفكان لزاما على أن أعترف له ؟ » .

— لم لا يكون دافعك إلى الاعتراف هو نفس الشعور الذى جعلك تزدادين تعمدا أن تعرضى نفسك لأن تضبطى وأنت تقارفين الاثم ؟

— صحيح أننى كنت ألعب بالنار ، ولكن .. أيعنى هذا أننى كنت أريد أن أحترق ؟

ولكن الذكريات التى تدفقت على ذهنها ، أكدت لها أنها كانت تسعى إلى أن تفضح علاقتها بكارلو فعلا !.. كانت تسرف فى الاستهتار ، حتى لقد نبهها كارلو — مرة — إلى أن الخادم فطنت إلى علاقتهما ، فبدلا من أن تكسب الخادم إلى صفها ، انحت عليها باللوم والتقريع ، زاعمة أنها كانت تهمل أعمالها .. وبات « كارلو » من جراء استهتارها — يخشى أن يفقد عمله !

حلم .. من أيام الطفولة

وكانت « فاى » تترفع على من وصفتهن بأنهن «زميلاتها» من بنات الهوى ، حتى لقد كانت تدخر من مكاسبها ما يكفى لتستأجر مسكنا آخر — غير الذى كانت تخلو فيه إلى « عملائها » — فى حى بعيد ، لتعيش فيه ثلاثة أيام من كل أسبوع ، فى هدوء وشرف وحشمة . كما أنها حرصت على أن تحصل على عمل شريف ، تتقاضى عنه أجرا طيبا ، بعد أن نفضت يديها من الدعارة . وبهذا حققت لنفسها استقرارا اجتماعيا وماليا .. ولكنها — مع ذلك — ظلت تشعر بعبء يثقل صدرها .

وقدر المحلل النفسانى أن ما كانت « فاى » تبديه من صلابة ، وصمود فى وجه كل الأحداث والأشخاص ، إنما كان خلقا مصطنعا ليستر وراءه الفتاة الصغيرة الخائفة ، التى كانتها فى طفولتها وصباها . وكانت مهمته هى أن ينتهز فرصة التقاء الشخصيتين معا .. وقد حانت إحدى الفرص ، حين ضاقت « فاى » يوما ببطء العلاج ، فقالت له : « أتعرف أننى كنت أحلم بأن أصبح طبيبة ؟ » . وعندما سألها عن الفترة التى داعبتها فيها هذه الأمنية ، بدا أنها كانت تبغض الحديث عنها ، ولكنها ذكرت أنها كانت تمثل دور الطبيب فى ألعاب الطفولة .

— وهل حدث أثناء اللعب ما آلم نفسك ؟

— ما هذا الهراء ؟.. انك — حين تحاول ان تجعل الحبة قبة — تذكرنى بالشيخ المخرف .. ابى !

وشيئا فشيئا ، انحلت عقدة لسانهـا : « كنت إذ ذاك فى السادسة — وربما فى الخامسة — من عمرى .. وكانت تقيم معنا عمة لى معلولة يتردد الأطباء عليها ، ولكنها لم تلبث ان ماتت .. ولعلها كانت تشكو احيانا من احد الأمراض الخاصة بالنساء .. وفى ذات يوم ، سرقت إحـدى الحقن التى كانت فى غرفتها ، وقلدت — مع فتاة صغيرة كانت تلعب معى — ما كان الأطباء يفعلونه مع عمتى ! » .

وإذ سالها الطبيب عن اسم صديقتها تلك ، سخطت على فضوله ، ثم صاحت : « ما كنت لأخبرك بشىء من هذا ، لولا اننى كنت طفلة بريئة ، ولم اكن ارى ذنبا فيما كنت افعل .. وما كان ينبغى لأحد ان يظن غير ذلك ، ما لم يكن عقله قذرا دنسا ! » .

ذنب الطفولة يجعل منها مومسا

وكان ابوها هو صاحب هذا العقل — فى رايها — فلمـا صارحها المحلل النفسانى بذلك ، غضبت .. ولكنه ما زال بها ، حتى استدرجها فى الحديث ، فاعترفت بأنها كانت تكره اباها ، لأنه فاجاها وصاحبتها ، وهما تلعبان دورى الطبيبـة والمريضة ، فثار وراح يصرخ حتى اثار فزعها .. واخذ يذكر كيف ان الشيطان كان يستولى عليها — فى رايه — وكيف أنها كانت اسوا مخلوق ، منذ عهد (سدوم) و (عمورة) !

وقالت فاى : « لقد ظل اسم (عمـورة) يدوى فى راسى كالرعد . ورحت احلم — ليلة بعـد ليلة — باننى ارزح تحت نيران حماية ، وكلما هممت بأن اتسلل من تحتها ، دفعنى ابى إليها ، وهو يصرخ مرددا ذلك الاسم ! » .. وادى شـعور الطفلة بانها مغبونة منبوذة ، إلى ان تكره اباها ، وما ان بلغت العاشرة من عمرها ، حتى كانت تشعر كما لو انها كانت مجرمة حقـا !

واجفلت « فاى » حين تبينت أن ما اعتادت ان تعزوه لأمها — فى نفسها — من قسوة ، إنما رسخ فى ذهنها عقب ذلك الحادث الذى أرهبها فيه أبوها . فقد اعتادت كلما ذكرت لها أمها أن من واجب البنـات ان يكن نظيفـات ، ان تتذكـر (عمورة) ، وان تخال أن إصرار أمها على أن تدلك جسمها بفرشاة خشنة ـ اثناء الاستحمام ـ كان لونا من العقاب !.. وكان من جراء كل هذا ، تولد فى نفس « فاى » نفـور نحو والديها . كما ترتب على ذلك أن شـعورها بالاثم — الذى اوهماها بانها ارتكبته — هو الذى دفعهـا إلى أن تتمرغ فى الاثم !.. وهو رد فعل طبيعى ، ساعدها على الإيغال فيه أن اخذت أوهامها تضاعف من حقدها على والديها !

ولقد تبينت « فاى » كل ذلك — على ضـوء ذكرياتها — فارتسمت لها صورة جديدة لأبيها .. صورة رجل يكدح فى الحياة .. رجل مضطرب الذهن ، إذا اسرف يوما فى الشراب ، قضى بضعة اشهر فى التوبة والتكفير . وإذ ذاك ، ابتـدات « فاى » تشعر بعطف عليه وعلى أمها ، وتقسو فى الحكم على تصرفاتها !

سر التحول عن الدعارة

وعند هذا الحد من العــلاج ، اخــذت اعراض المرض الجسدى تبارح « فاى » ، رغم انها لم تكن قــد تخلصت من اكثر من جزء من الشعور بالاثم ، الذى لازمها من الطفولة . كما ادركت سرالوهم الذى كان يوحى إليها مرة بانهــا كانت مصابة بالسرطان ، وأخرى بأنها كانت فريسة للسل . فان امها ماتت بالأول كما ان عمتها ماتت بالثانى !

ولكنها لم تكن قد تخلصت بعد من اسوا متاعبهــا .. من الشعور بالضيق ، وبالهم الخفى الذى كان يثقل نفســها . وقالت يوما للمحلل : « اننى اعرف سر ذلك ، فما هو الا نتيجة ادراكى حقيقة نفسى . ابدا ما كنت افكر فى نفسى كمومس ، وإنما كنت أحسب اننى أحارب كلارك لأنه طردنى وطلقنى . ولكننى الآن اتبين اننى إنمــا كنت مومســا فاجرة ، فكيف لا اغتم لذلك ؟.. لقد هوى ذلك بى من المــكانة التى كنت أضع نفسى فيها كبطل ! » .

وردد المحلل كلمتها الاخيرة فى تساؤل : « بطل ؟ » .

— لعنة الله عليك !.. إنما كنت مومسا لأننى خلقت لذلك ، ولولا أن اعصابى تخاذلت لظللت مومسا !

وادرك المحلل النفسانى انهــا كانت ترجــو ان يعارض قولها ، ولكن جرحهــا كان فى حاجة إلى ان يغفــل ذلك . فسألها : « وكيف تخاذلت اعصــابك ؟.. ما الذى حدث فى آخر يوم فى حياتك كمومس ؟ » .. وثارت عليه فى اول الأمر ،

وخشنت فى القول ، ثم ثابت إلى نفسها ، فاعتذرت وقالت : « لقد ذكرتنى فجأة بعملائى الملعونين .. ما من واحد منهم إلا سألنى : « كيف قدر لطفلة وديعة ذكية مثلك أن تتردى ؟ » » .

الفتاة التى ذكرتها بشبح المــاضى

وعادت تكرر الاعتذار فى الجلسة التالية ، ثم راحت تروى له ما حدث فى آخر أيام دعارتها .. فلقد كانت بين «زميلاتها» فتاة تبدو وحيدة ، منكسرة ، فدعتها « فاى » إلى العشاء ، فى إحدى الأمسيات التى لم تكن تمارس فيها الغواية ، ففرحت الفتاة ، وارشدتها إلى مطعم فى قرية قريبة .. ولكن « فاى » لم تلبث أن اكتشفت ان المكان كان مباءة لممارسات السحاق ، من ذوات الشذوذ الجنسى . واشــتد تقززها من المكان ، فأرادت أن تنصرف مدعية أنها شعرت بمرض مفاجىء ، وإذا بالفتاة تصر على أن ترافقها . ومن ثم اصطحبتها « فاى» إلى المسكن الذى كانت تخصصه للهدوء ، بعيــدا عن الفسق . ورجتها « ديزى » — وهو اســم الفتاة — أن تسمح لهــا بالمبيت معها . فلما اجابت سؤالها ، شرعت « ديزى » تخلع ثيابها ، حتى تعرت تماما !

واستطردت فاى : « لم ار فى حياتى ما هو أدعى للاشمئزاز من ذلك . كان عملها بمثابة دعوة إلى الشذوذ الجنسى ، حتى اننى اسرعت إلى الحمام ، فتقيأت ما كان فى جوفى . وانتظرت إلى أن نامت « ديزى » ، فتركت لهــا مذكــرة اعتــذر عن اضطرارى للانصراف .. وكان هذا آخر عهدى بالأمر كله ؟ »

- أواثقة انت من أن ديزى كانت من ممارسات السحاق ؟

- وما الذى تكونه فتـاة تلصق بى طيلة الأمسية ، ثم تتعرى من ثيابها ، وتتلوى فى رقاعة .

- او كانت « ايدى » تتلوى فى رقاعة ؟

وصرخت « فاى » مأخوذة : « من ؟ » .. ومرت لحظات ، قبل ان تقول : « آه !.. اتعنى زميلتى فى الدراسـة ؟ » . وقال الدكتور مونجمرى : « أجل ، التى قلدت الراقصـة فى غرفتها ! » . فصاحت فاى : « لا اتصور شخصين بينهمـا من الفوارق مثل ما بين ايدى وديزى .. وليس لما فعلته ايدى علاقة بالغثيان الذى ينتابنى ، فهى وان تجردت من ثيابها - فى تلك الليلة - الا انهـا كانت تقلد الراقصـة ، لمجـرد الفكاهة ! » .

« ديزى » و « ايدى » .. فى حلم !

واخذ فكر « فاى » يحوم - فى تلك الأيام - حول السحاق واشمزازها ممن يمارسـنه .. وقالت ، ذات مـرة : « من الطريف أن انتقد الغير ، بعد الحياة التى كنت أعيشها ، ولكن ثمة شـيئا فى الفتيـات اللائى من صـنف « ديزى » ، يثير القشعريرة فى بدنى ! » .. وهنا ، قال لها المحلل النفسانى : « اتقصدين انه يثير خوفك ؟ » . وبدا عليها الضيق ، ثم فكرت برهة ، وما لبثت ان انفجرت ضاحكة ، ثم قالت : « لشـد ما اكره مجادلتك . إذا كان قد تبدى على شىء من الخوف ، فانما يرجع ذلك إلى امر آخـر .. أؤكد لك اننى لم اشعر

بجزع من « ديزى » ، ولكنى أصارحك بأننى - حين تحدثت عنها - تذكرت فجاة حلما يدور حولهـا ، ويتصـل بـ ... بأبى ! ولقد بدأ باستيائى من اطلاع « ديزى » على مـدى اشمئزازى مما فعلت ، فقد كانت - رغم كل شىء - مرهفة الحس . وقد حرت فى طريقة للتخلص منها دون أن أجـرح شعورها ، فذكرنى هذا بخسة أبى ! » .

ولقد تمثلت نفسـها - فى الحـلم - ملكة ، تجلس على عرشها ، وإذا بأبيهـا يأتى مع « ديزى » ، واخـذ يصرخ فى الفتاة ثم القى بها عند قدمى الملكة . فصاحت فيه هذه تنهره ، وعينت « ديزى » وصيفة لهـا . ولكن الشيخ ظل يصرخ ، فصاحت فيه : كيف يصرخ هكذا أمام ملكة ؟!

واردفت « فاى » قائلة : « انه حلم غير ذى قيمة ، ولكنى لا ادرى ما الذى ذكرنى به اليـوم .. المهم فى الأمـر ، اننى عاملت الشيخ فى المنام ، كما عامله والد الفتاة التى كنت أمثل دور الطبيبة معها فى صغرى . فقد جاء فى اليـوم التـالى ، وتشاجر مع الشيخ لأنه أخاف ابنته بصياحه .. ولقد منعت بعـد ذلك من اللعب مع « ايدنـا » . وهنـا هتف الدكتور مونجمرى : « ايدنا ؟ » . فقالت : « أجل .. ايدى ! » .

الهاربة من الشذوذ الجنسى !

وكان هذا كافيا لإزاحة الستار الذى كان مسدلا على نفس « فاى » ، فتذكرت أنها بهرت بمـا كانت « ايدى » تبديه من خلاعة وإغواء ، عنـدما التقت بهـا بعد حادث الطفـولة

بسنوات ، وقد اصبحتا فى سن المراهقة . كما تأثرت بما كانت الفتاة تبديه من استخفاف وعدم اكتراث بالذكور .. ثم قفزت ذاكرة « فاى » إلى مناسبة اخرى ، فعندما سمعت « ايدى » بخطبتها إلى « كلارك » ، تنبأت — رغم انها لم تكن قد رأته — بأن زواجهما لن يكون سعيدا . واستطردت « فاى » قائلة : « والآن استطيع ان ارى ان « ايدى » ظلت طويـلا تراودنى وتحاول ان تغوينى على السحاق ، ولكنى كنت من الغفلة بحيث لم ادرك ذلك . واحمد الله على اننى كنت مغفلة ! » .

وكان من الجلى ان « فاى » لم تمارس الشذوذ الجنسى عمليا ، ولكنها كانت شاذة من ناحية اخرى .. ناحية ميلها الشديد إلى « ايدى » ، ثم إلى « ديزى » فيما بعد . وفى الحالين ، كان الغثيان ينتابها كلما احست بأن الميل يوشك ان يبرز جليا لوعيها ، ليتخذ اسلوبا عمليا .

وإذ اخذ الدكتور مونجمرى يساعد «فاى» على تبين ذلك ، بدأت الحقائق — التى كانت « فاى » تتهرب منها وتناضلها — تفقد طابعها المخيف . وشيئا فشيئا ، اخذت تواجه الحقيقة الجوهرية ، وهى ان تمردها ، ومسلكها العدائى نحو ابويها ، ومشاجراتها مع زوجها وحقدها عليه .. كل هذه كانت اعراض اتجاه شاذ ، مبعثه الأصلى هو الرغبة فى التساوى بالذكور . فقد وقر فى ذهنها — نتيجة تصرفات ابويها معها — ان الذكور افضل واعلى شأنا من الإناث .. وعندما شعرت بأن اباها كان ينبذها ويحتقرها ، وهى المشوقة إلى حبه — بحكم الطبيعة — ارادت ان تثبت له ولنفسها ، انها لم تكن

بحاجة إلى حبه !.. ولقد كانت — باتجاهها إلى الدعارة — تنفس عن نفسها الشعور الذى استولى عليها نحو ابيها الذى اتهمها بأنها تمرغ اسمه فى الوحل .. كما ان امها لم تكن تنفك تذكر لها ان الفتيات يجب ان يكن نظيفات ، فكان فسقها مظهرا للتحدى والتمرد . اما زوجها ، فكان مجرد شخصية ثانوية بريئة ، تجلت لبصرها — الذى شوهته انفعالاتها النفسية — فى صورة العدو !

ولقد كان تجرد « ديزى » من ثيابها ، وحركاتها الخليعة ، سببا فى غثيان « فاى » .. وفى اشمئزازها — كذلك — من الدعارة التى جمعت بينها وبين الفتاة . وكانت الحالان مظهرين للصراع الذى كان يدور فى نفسها ويعذبها . كما كان خوفها من ان تنفضح مشاعرها التى لم تكن تلقى اعترافا ولا تقديرا — وهى المشاعر التى كانت تدفعها إلى الشذوذ الجنسى — سببا فى ان تولاها الخوف من كل نشاط جنسى ، كما اثار لديها الرغبة فى ان تعاقب نفسها !

* * *

وإذ تبينت « فاى » هذا ، قالت ذات يوم : « اننى ادرك الآن اننى كنت ذات شذوذ جنسى دفين .. واننى كنت على استعداد لأن اكافح حتى الموت ، لأثبت عكس ذلك ! » .. وكان إدراكها ذلك ، علامة الشفاء .. اخيرا !





من خفايا النفوس:

الجائعة!

قصة حالة نفسية واقعية عالجها
الأخصائي النفساني الدكتور "روبرت لندنر"

جناية الآباء على الأبناء

اثبت علم النفس الحديث أن معظم الشذوذ الذى قد يلابس تصرفاتنا ، ومعظم المتاعب التى نتعرض لها فى الحياة ، قد ترجع فى أصلها إلى تجارب مررنا بها فى ماضينا ، وفى مرحلتى الطفولة والمراهقة بوجه خاص .. وهذه مأساة جديدة من المآسى التى عرضها الطبيب والمحلل النفسى العالمى « روبرت لندنر » ــ فى كتابه النافع الذى قدم لك « كتابى » منه قصة « المنبوذ » ، فى العدد الماضى ــ فبدد الغيوم والغموض ، ليكشف عن العلل والعقد النفسية الكامنة خلف كل مأساة .

والبطلة ــ فى هذه المرة ــ امرأة كانت ضحية ، وضحية بشعة ، لعقدة نفسية مستعصية ، تبين لنا مدى ما يجنيه الآباء والأمهات على ابنائهم وبناتهم ، عندما يتخلون عن التحرز فى علاقاتهم الجنسية ، أو فى مشاجراتها وشقاقهم .

ذات الوجهين !

لورا .. ذات الوجهين !

لقد رايت فى ذلك النهار احد وجهيها فاذا به بشع ، منتفخ كانه البالون على وشك انفجار ، وإذا عيناها تكادان تضيعان فى بالوعتين من اللحم المتورم ، لولا شعاعين من نار الحمى

كانا ينبعثان فى فزع ووهن .. اما الأنف فكان مطموسا بين بطبختين تسميان خدين ، من تحتهما ذقن مدبب يتصبب عرقا زيتيا . وفيما بين هذه التضاريس حفرة قرمزية تسمى فما !

وأذهلنى مرآها !.. اذهلنى وقززنى ، حتى اننى لم أستطع كتمان ما بى من اشمئزاز . ففطنت لورا إليه ، وصرخت فى ثورة جائحة : « تأملنى !.. انظر إلى وتقيأ ! اجل ! هذه انا .. « لورا » بعينها . الست تعرفنى ؟.. ها انتذا ترى ما طالما حدثتك عنه بلسانى طوال الأسابيع الماضية . وليس الوصف كالعيان !.. فهلا رحمتنى ؟! » .

فقلت لها باقصى ما استطعت من هدوء : « ارقدى .. ارقدى يا لورا ، وحدثينى بكل شىء ! » .

ــ وماذا تظن ، بحق الأبالسة ، اننى كنت احدثك عنه طوال الأسابيع الماضية ؟

تنشد الموت بالاسراف فى الأكل !

واشحت عنها بوجهى كى اجلس على مقعدى خلف المكتب . ولكنها قبضت بيدين من حديد على معصمى ، حتى انغرست اظافرها فى لحمى ، وأرغمتنى على ان اواجهها واتلقى انفاسها المثقلة برائحة الخمر وعفونة الطعام المتخمر والقىء ، وهى تصرخ بى :

ــ كلا ، لن أرقد . بل سأقف هنا وأكرهك على التطلع إلى وجهى ، كى ترانى كما ارى نفسى . فانك تريدنى على الرقاد كيلا ترى سحنتى .. ولكن بعدا لك ! لن اوفر عليك هذا

الوبال ، وسأقف هنا بمعونة الشيطان ، إلى الابد ، إلى يوم الدين !

وترنحت ، ثم سقطت فجأة على الأرض متداعية .. ولم اكن قد خبرت حالة كحالة « لورا » من قبل ، ولا مرت بى اعراض كأعراضها .. وتتلخص حالتها الغريبة فى تعرضها لنوبات من الضيق والاكتئاب والهبوط النفسى ، تندفع خلالها إلى الأكل والشرب بإفراط ، بنية قتل نفسها بالتخمة .. عن طريق الالتهام المتواصل لكميات غير معقولة من الغذاء ، دون ما استساغة او تمييز بين الاصناف والطعوم ، لانها تكون — إذ ذاك — فريسة لقوى أعتى منها ، لا تملك السيطرة عليها .. قوى تجعلها عاجزة عن الشبع ، حتى تصل إلى الاعياء التام ، وتكف عضلاتها عن الحركة ، وعن الاستجابة ، فيقف فمها عن الالتهام والمضغ ، وتقف معدتها عن الاستيعاب . بل وتقف يدها عن حمل الطعام ، وتضج احشاؤها بالالم من كثرة ما اكتظت به ، وتفور دماؤها بالتسمم من هذه التخمة .

دوامة فى احشاء « لورا »

ولم استطع ان اصدق حقيقة حالتها هذه ، إلا حين رايتها فى ذروة إحدى تلك النوبات التى طالما حدثتنى عنها !

— انها حالة تبرز لى من العدم .. ومن حيث لا ادرى ولا احتسب . ولست اعلم لها سببا ولا مناسبة ، بل هى تصيبنى فجأة ، وفى اى وقت ، وانا منهمكة فى اى شىء .. فبين طرفة عين وانتباهتها ، انقلب من المرح إلى التعاسة ،

ومن حب الحياة والناس إلى جحيم من اليأس والبغضاء . واحسب ان المسألة تبدأ بشعور بالخواء الداخلى . ويشرع شىء ما — لا ادرى بماذا اسميه — فى إيلامى . وكأن هذا الشىء يفغر فاه فغرة تتسع وتتسع كالدوامة داخل احشائى ، وينبض فراغها كالقلب الثائر ، ثم تنتظم دقاته وتشتد حتى تغدو كالطبل المجنون . وعندئذ احس بأن كيانى كله قد انقلب إلى فراغ يحتويه اهاب من الجلد .. وهذا الفراغ يضج بدقاته الموجعة التى تنقلب عذابا كعذاب النزع الأخير ، فلا يبقى منى — انا « لورا » التى تعهدها واعهدها ويعهدها الناس — سوى فراغ هائل منهوم !.. واندفع آكل واشرب، واشرب وآكل ، والفراغ يزداد نهما والما .. كأنه التنور الذى لا يقول — مهما تمده بالوقود — الا : « هل من مزيد ؟! » .. وازيد ثم ازيد .. كل شىء ، فليس للطعم حساب ، وإنما الحساب للفراغ الذى لابد له من امتلاء . وهيهات أن يصل إلى الامتلاء !.. فانا وذلك الفراغ فى سباق مجنون ! كلما كلت يدى أو تعب فمى ، زادت الهاوية اتساعا ، واصابنى الذعر .. فاندفع آكلة شاربة حتى الاغماء !.. ما لم يصبنى الاغماء ، فاننى لا اكف عن الأكل ، ولا تنتهى النوبة .. ولا اصل إلى الاغماء حتى تبلغ بى الخمر والتخمة هذا الحد من التبدل والتورم . ومتى بدا الاغماء ، تحول إلى نوم يستمر يومين وليلتين .. نوم محموم تكتنفه الاحلام المفزعة .. وهى احلام من رحمة الله بى اننى لا اكاد اذكر منها شيئا بعد صحوى !.. وما ابشع هذا الصحو !..

انني – إذ ذاك – لا أكاد أعـرف نفسى فى المرآة من الـورم والقذارة ، فكأنى حلوفة خارجة من حمأة ، فلا ملامح واضحة لى ، ولا قامة ..

الوجه الثانى للورا !

وكانت قد انقضت ثلاثة أشهر من العمل التحليلى الشاق قبل تلك المناسبة التى اطلعتنى على الوجه الآخر للورا .. الوجه الذى عرفتـه من قبل وصـفا ، فعـرفته – فى ذلك الصباح – مشهدا وخبرا . وكانت تلك الأشهر الثلاثة عاصفة بالنسبة لكلينا . فقد كانت لورا تبلل كل ساعة من ساعات الجلسات بالدموع ، وتشعلها بالزفرات ، وهى تحدثنى عن ازماتها ونوباتها .

وبالرغم مما تعودته من سماع المآسى – بحـكم مهنتى – فقد استطاعت قصة « لورا » أن تهزنى وتحرك أعماقى ، فلم أكد اقدر على كتمان عطفى عليها ، الكتمان الذى تتطلبه تقاليد عملى . ومن ثم فانهـا استطاعت ان تستشف من نظـراتى وملامح وجهى حقيقة شعورى ، رغم صمت لسانى ، فأخذتها على انها الشفقة عليها والرثاء لها ، وراحت تبالغ فى وصف آلامها ، حتى تستدر مزيدا من شـفقتى ، وتقهـر مقاومتى وجمودى ..

وما ذكرت المنظر – الذى افتتحت به هـذه القصـة – لطرافته الهامة فحسب ، وإنما لانه يختلف تماما عن صـورة « لورا » العادية ، فيما بين النوبات . فان « لورا » العادية فتاة ليست بالثرية .. اجل ، ولكنها شديدة التجمل فى فقرها . تحسن اختيار ثيابها اختيارا يبرز خير ما فى تكوينها وملامحها .

والنظام الغذائى (الرجيم) القاسى الذى تفرضه على نفسها فيما بين النوبات ، يحفظ عليها رشاقتها فى مستوى ترضى عنه (الموضة) .. اما وجهها الذى تحيط به هالة من الشـعر الأسود الفاحم فلعله ليس جميلا ، بيد انه مقبول جذاب .

ماء وضحك ووقع أقدام !

وذات يوم ، افتتحت لورا الجلسة بالشكوى المعتادة من الكوابيس التى تزحم نومها كل ليلة ، وإن كانت تفصيلاتهـا تروغ من ذاكرتها .. وكانت تستيقظ مروعة من كل كابوس ، وما ان يعاودها النعاس حتى يداهمها كابوس آخر .. وكلها احلام غامضة لا تخلف لديها سوى ذكرى غامضة ، شوهاء ، غير محددة المعالم . وإنمـا كانت تتوفر فيها جميعـا ثلاثة عناصر ، لا تغيب عن كابوس منها على كل حـال : العنصر الأول : المـاء ، على شكل موجات دافقة بطيئة الزحف ترتطم بها فى لذع السياط .. والعنصر الثانى : وقع الاقدام ، الصادر عن اقدام خفية ، تلاحقهـا فى كل مكان ، فتفـر فى أروقة ودهاليز . وقد تتكاثر هذه الأقدام – أحيانا – فتغدو زحاما من المطاردين غير المنظورين .. والعنصر الثالث : الضحك ، الذى يتردد فى عواصف هستيرية صاخبة هازئة !

ولقد سألتها : « الا تتذكرين شيئا عدا هذا ؟ » .

– لا شىء على التحـديد عـدا المـاء ، والمطـاردة ، والضحكات !

وساد الصمت ، وقد غطت وجهها بيديها ، ثم مرت بهمـا على جبهتها فى بطء ، وقـد ابيضت مفاصل اصابعها من

التشنج ، وقالت : « اننى اتذكر الليلة التى غادرنا فيها ابى ! » .

وبدات اسمع القصة :

كان المطر ينهمر ، وقد رفعت اطباق العشاء عن المائدة لتوها ، وجلست « لورا » وشقيقها « مايك » يستذكران دروسهما . اما « فريدا » ـ الشقيقة الكبرى ـ فكانت فى المطبخ تغسل الأوانى . وكانت الام المقعدة قد دفعت مقعدها المتحرك إلى حجرة النوم الأمامية لتصغى إلى المذياع ..

وانفتح الباب ، فرفع الصغير عينيه ، .. وتلاقت نظراته بنظرات «لورا» فى خوف .. وقد بدات خطوات ثقيلة تجتاز الردهة . وانكبا على كتبهما يتصنعان الانهماك فى الدرس .

فى ليلة عاصفة ..

وبعد لحظة ، سمع الثلاثة زمجرة ابيهم وهو يلقى التحية ، ثم رد امهم .. ثم صرير لوالب الفراش والأب يجلس فوقه ، وصوت ارتطام حذاءيه الكبيرتين بالأرض وقد خلعهما . وصر الفراش ثانية ايذانا بنهوضه عنه . وسمعوا امهم تقول له بصوت اشد ارتفاعا من موسيقى المذياع :

ـ آه !. لست تشعر بالبرد !.. طبعا يا سيدى ! وكيف تشعر بالبرد وقد ملأت بطنك بالويسكى ؟

ـ لا تفتحى هذا الموضوع يا « آنا » !.. اننى متعب الليلة .

ـ متعب ؟ ومم ؟.. ليس من العمل طبعا !

ـ اغلقى فمك يا آنا ..!

وغادر حجرة النوم ، فاقفلت « آنا » المذياع وتبعته بكرسيها المتحرك إلى حجرة المائدة ، حيث كانت « لورا » وشقيقها . فرفعت الفتاة راسها نحو ابيها وابتسمت . وانحنى وقبل خدها ، فداعبت شعرات شاربه الخشنة وجهها ، وادارت راسها رائحة الويسكى المنبعثة من فمه . ثم انتقل الأب إلى « مايك » الصغير ، فداعب شعره بيده الضخمة . وما لبث ان جذب مقعدا من مقاعد المائدة ، وجلس هاتفا : « فريدا ! » .. فاقبلت الابنة الكبرى من المطبخ .. وقال لها :

ـ الا تحضرين لأبيك الشيخ شيئا يأكله ؟

فدفعت « آنا » مقعدها المتحرك إلى الفراغ الكائن بين المائدة وباب المطبخ ـ الذى وقفت فى فرجته فريدا ـ وقالت لزوجها : « ليس لدينا شىء لك . إن كنت تريد طعاما فتعال إلى البيت فى وقت العشاء ، فليس هذا مطعما عاما ! » . ولكن الرجل تجاهل كلماتها ، وخاطب فريدا من فوق راسها : « اصدعى لما امرت . هاتى لى عشاء ! » .. .. بيد أن امها هتفت : « انتظرى !.. لا تطيعيه ! » . فقال الرجل : « اخرسى ! » .

اب يهجر داره

ونظرت إلى زوجها بحقد ، وقد نفرت عروق وجهها وعنقها ، وارتعد جسمها النحيل ، واخذت تصرخ فى وجهه :

— لن أخرس .. انك لا تبالى بما يحدث لنا . لا تبالى إن عضنا الجوع او آذانا البرد ، فليس يعنيك سوى المومسات اللائى تعطيهن نقودك !

— آنا .. ان الأولاد يسمعون ما تقولين يا آنا .

— الأولاد ؟!.. اتظنهم يجهلون اى أب فاسد متعفن انت ؟.. اتظنهم يجهلون اين تذهب حين تغيب عن البيت ؟

فضرب المائدة بقبضته ووقف صائحا : « كفى ! لن اسمع كلاما كهذا بعد .. اصمتى ! » . واتجه نحو المطبخ . فأسرعت بمقعدها المتحرك تسد عليه الطريق ، وهى تصيح :

— عندما تدفع ثمن الطعام يحق لك دخول المطبخ !

ورفع يده غاضبا فأطلقت ضحكة قصيرة ، وصاحت : « ماذا تنتظر ؟.. اضربنى !.. اضرب المراة المقعدة ! » .. فجمدت يده فى الهواء .. وساد صمت اتضحت فيه ضربات المطر على زجاج النافذة . ثم قال الأب : « إذا لم تتنحى عن طريقى ، فسأغادر هذا البيت لغير عودة ! » .

— اذهب !.. منذا الذى يريدك هنا ؟

فوقف جامدا كالتمثال برهة طويلة ، ثم دار على عقبيه واتجه بسرعة نحو حجرة النوم ، تتبعه جميع العيون .. وادركت الزوجة انه كان جادا فى وعيده ، فلحقت به فى غرفة النوم ، ولكنه مضى يجمع ثيابه .. وانقلبت تستغفره ، ولكنه غادر البيت لا يلوى على شىء ..

« لورا » تبحث عن الحب

ولم يعد « مايك » الأب بعد تلك الليلة . وكان بين الحين والحين يرسل بضعة دولارات .. وفى عيد ميلاد « لورا »

التالى لرحيله ، بعث إليها بزجاجة عطر من (اتلانتك ستى) . ولكن عينيها لم تقعا عليه بعد تلك الليلة .

وكانت دموع « لورا » تنهمر وهى تروى لى تلك القصة . فتركتها تمسح دموعها وتتمخط وانا صامت . ثم نظرت إلى ساعتى . فقالت لى : « لم لا تقول شيئا ؟.. اظهر العطف على الأقل ! » .. فسألها : « نحو من ؟ » .

— نحوى انا طبعا !

— ولماذا نحوك انت فقط ؟ وماذا عن « فريدا » ، و « مايك » الصغير ، وامك .. وابيك هو الآخر ؟

— إنك جامد القلب ، ولن أعود إليك !

وخرجت على الفور .. ولكنها عادت بالطبع ، وواظبت على العودة اربع مرات فى الأسبوع مدى سنتين كاملتين .. وكان تقدمها فى خلال السنة الأولى بطيئا فى حقيقته ، وإن بدا عظيما فى مظهره . لأنها انقلبت إلى التطرف فى الزهد والتقشف والاستقامة !.. واذكر فى الشهر الحادى عشر من جلسات التحليل ، حصلت على مكانة رفيعة فى المتجر الذى تعمل به بسبب التغير الظاهرى فى أسلوب حياتها .. حتى ان زميلا لها فى العمل راح يتودد إليها . فجاءت تقول لى :

— لا اريد أن أخدع هذا الشاب .. انك اعلم الناس بمدى أنانيتى ورغبتى فى الاستحواذ على من اتصل بهم ، ولكنى اريد فى هذه المرة الا اكون كذلك .. بل اريد ان تكون لى به علاقة حب موفقة !

— اتعنين انك تفكرين فى الزواج به ؟



ــ إنما الذى احلم بالزواج منه هو « بن » .. اما هــذا الشاب .. فالذى انشده منه حقا ، هو الحب .. الحب الذى اهب من نفسى فيه بقدر ما آخذ !

واردفت قائلة : « ليس هذا على كل حال ما جئت اليوم للحديث فيه . فهنــاك حلم .. رايتنى فيمــا يشبه قاعــة الرقص ، ولكنى كنت اعلم انها فى الحقيقة مستشفى . ثم جاء رجل وطلب منى ان اخلع ثيابى كلها ــ حتى ورقة التوت ــ لانه سيفحصنى فحصا مهبليا ، ففعلت ما طلبه منى وانا خائفة كل الخوف . وبينما انا اخلع ثيابى ، لاحظت ان هذا الرجل يصنع شيئا بامراة اخــرى فى اقصى الحجرة . وكانت المراة راقدة وقد انشبت فى جســمها شتى انواع الروائع والآلات الجراحية . وادركت انى ساكون التالية لها فى ذلك الوضــع الغريب عندما يفحصنى » .

بين الاشتباه والخوف

وسكتت لورا برهة ، ثم قالت : « وفجاة ، نادانى الرجل ، فوجدت نفسى اجرى نحوه .. وإذا الفراش قد صار خاليا .. وامرنى ان اصعد إليه ، فرفضت ، وشرعت اصرخ وابكى . ثم اخذ المطر ينهمر فى قطرات كبيرة ، فدفعنى الرجل واوقعنى على الأرض ، ثم فتح ساقى كى يفحص مهبلى . فانقلبت فوق بطنى واخذت اصرخ حتى استيقظت على صراخى . والآن ، ما تاويل هذا الحلم ؟ » .

ــ انت تعرفين طريقة التاويل يا لورا .. حاولى ان تربطى بين صور الحلم وخواطرك وذكرياتك !

ــ اول ما خطر لى هو « بن » ، لانه طبيب امتيــاز فى مستشفى الجامعة كما تعلم .. ولكنى رفضت ان يفحصنى !

ــ ولم هذا الرفض ؟

ــ لانى نشأت اخاف الأطباء منذ طفولتى ، إذ اخشى ان يؤذونى بحقنهم وإبرهــم .. ولا احتمــل ان يعبث احدهم بجسمى .. واخال الآن بوضوح ان الجنس هو مصدر خوفى .. فالطبيب فى الحلم هو « بن » ، وهذا الفحص الذى يطلبه منى هو فى الواقع اتصــال جنسى كالذى يحاول الظفــر به احيانا ، ولكنى افزع وانفر منه .

ــ ولكنك خبرت الاتصال الجنسى بالرجال ، من قبل ، كما اعترفت لى ؟

فبكت وقالت : « هذا صحيح . ولكنى لم اكن اســمح لهم ان ينالونى بصورة كاملة إلا عندما لم يكن ثمة مناص من ذلك ، حين اخشى ان يتحولوا عنى !.. ولم احظ باتصــال جنسى كامل ــ تنسينى لذته نفسى ــ الا مرات قليلة فى حيــاتى . اما فى سائر المرات فكنت اكتفى باشباع رغبة الرجل من غير ان احظى باشباع رغبتى . وكنت اوثر ان يكون ذلك باتصال خارجى حتى لا يؤذينى كما تؤذى ابرة محقنــة الطبيب التى يغرسها فى الوريد ! » .

اصوات من مخدع ابويها

واخذت استحثهــا على ان تتذكر ما ينم عن المراة التى كان الطبيب يفحصها فى الحلم ، فقالت « ان الفراش الذى كانت

ترقد عليه ، كان اشبه بمقعد أمى المتحرك . ولكن ، ولماذا كان الطبيب يفحص أمى ؟.. ما معنى هذا ؟ » .

— فكرى يا « لورا » فى معنى الفحص الطبى فى ذلك الحلم .

— انه يعنى الاتصال الجنسى .. آه ، وجدتها ! أن الاتصال الجنسى هو الذى اقعد امى والزمها مقعدها المتحرك . أصابها بالشلل . واظن ذلك هو ما اخشى أن يحدث لى من الاتصال الجنسى بالرجال .. هذا ما فى عقلى الباطن عن الجنس منذ الطفولة ، ولهذا فانا أفزع منه !

وعن طريق الاستجواب والتذكر ، وصلنا إلى ربط هذه الفكرة الكامنة فى اللاشعور ، بحوادث طفولة « لورا » . فلقد كانت فى صغرها تستيقظ فزعة اثناء الليل على أصوات غامضة تصدر من فراش والديها ، وتوحى لها بالرعب والألم ، إذ كان عقل الصبية الصغيرة يعجز عن ربطها بمراسم الحب المألوفة للكبار ، لا سيما أن حياة النهار بين والديها كانت شجارا متصلا ، ومن ثم فقد أخذت التأوهات الخافتة والضحكات والمداعبات تتجسم للطفلة فى الظلام الوانا من التعذيب الجسدى .. وارتبطت هذه الصورة فيما بعد بالاتصال الجنسى عامة ، وحينما اصيبت الام بالشلل بعد سنوات ، ربط اللاشعور — لدى الفتاة — بين علة الام وتاريخ الاتصال الجنسى بين أبويها ، فتسمم عقلها الباطن بذلك الارتباط ، وايقنت ان الاتصال الجنسى بالرجال خليق بان يودى بها إلى الشلل كاملها !

وإذ أوضحت ذلك ايضاحا تاما فى نهاية الجلسة ، ظهر له اثر واضح على « لورا » ، فتلاشت على الفور من رأسها فكرة الفزع من الاتصال الجنسى وعواقبه الوبيلة على صحتها .

وفى الجلسة التالية اقبلت « لورا » فى موعدها مكتئبة واجمة . وبادرتنى قائلة : « لا حاجة بى إلى ان اخبرك بأننى توجهت — بمجرد انصرافى فى المرة السابقة — إلى مسكن « بن » !.. اعنى إلى فراشه مباشرة ! » .

— لماذا تكلميننى بهذه اللهجة يا لورا ؟

— لانى اكرهك .. فانت الذى دفعتنى بتاثيرك إلى ذلك . دفعتنى إلى الأذى !

— اتسمين اذى انك نمت فى فراش « بن » ؟

— لن أكذب عليك ، لقد شعرت بالمتعة لأول مرة فى حياتى ، ولكنك اثرت ذكرى أمى فى نفسى ، فلم تفارقنى طيلة اليومين !

ولذت بالصمت كعادتى إلى أن هدأت ثورتها . وقدمت إليها سيجارة ، فقالت : « من العجيب اننى كنت اتشبث دائما ببغضها ، لانى كنت اعتبرها مسئولة عن رحيل ابى ، وكنت اتغاضى عن الحقيقة ، واتناسى ان ابى كان فاسدا عربيدا .. وكنت اسأل نفسى دائما : لماذا يقيد نفسه وهو العملاق القوى ذو العنفوان ، بأمى العليلة المشلولة ؟.. واتناسى انه كان عربيدا زئر نساء قبل أن تصاب أمى بالمرض الذى اقعدها . ولكنى كنت احب ذلك الرجل — أبى — حبا اضل عقلى واطاش حكمى . ذلك لاننى كنت ابنته المفضلة . ولهذا احببته وكرهت أمى لأنها كانت تحاسبه على أفعاله .

وبعد أن هجرنا ابى ، تفننت فى ايلامها وتعذيبهـــا انتقاما له منها . كنت أخطف من يدها طعامهـــا ، وأظل احاورهـــا فى الحجرات — وهى تلاحقنى بمقعدها ذى العجلات صـــارخة ضارعة — ثم أهرب هابطة الســـلم واتركهـــا تدق بيدهـــا سياجه ، ودموع القهر تنهمر من عينيها لعجزها عن الهبوط ورائى .. ثم تنفجر فى ضحك هستيرى ، اظنه هو ســـبب ما يلاحقنى فى كابـــوس احـــلامى من ضـــحكات غامضـــة المصدر ! » .

محاولة للانتحار

وبعد ظهر يوم من أيام الخميس ، كانت « لورا » المريض الأخير فى دفتر مواعيدى . وكنت أعتزم السفر إلى (نيويورك) فى اليوم ذاته .. وإذ علمت بأننى لن أعود قبل يوم الاثنين ، تساءلت : « هل معنى هـــذا حرمانى من جلســـة الســـبت المعتادة ؟.. اننى اكره أن تفوتنى جلسة ، لأنها اصـــبحت ضرورية لراحتى النفسية .. ماذا افعل لو احتجت إليك فى غيابك ؟ » .

— تتصـــلين ببيتى ، فيدلونك على رقـــم تليفـــونى فى نيويورك ..

وفى نهاية الجلسة ودعتنى وفى عينيها بريق غير مألوف .. وسافرت إلى نيويورك ، فسهرت مع زميل لى ، نتناقش فى بعض المسائل المتعلقة بالمهنة . ثم عدت إلى فندقى ، وإذا بكاتب الاستقبال يبلغنى رسالة فحواهـــا ان على ان اطلب رقما معينا فى مدينة (بلتيمور) . ودهشت عنـــدما صـــافح

اذنى صوت « لورا » عبر الاسلاك .. فهتفت : « ماذا حدث يا لورا ؟ » .

— كنت أحاول الاتصال بك مدى ساعات طويلة .. فقد رغبت فى ان أتحدث إليك عن شـــعورى .. اننى خائفة ..

وسمعت صوتا يشبه البكاء ...

وفى مساء يوم الجمعة ، أويت إلى مخدعى — فى الفندق — مبكرا ، استعدادا لقضاء عطلة الأسبوع لأول مرة منذ سنوات فى (نيويورك) .. وإذا بى أتلقى نداء من زوجتى ، تدعونى إلى التعجيل بالعودة !

وعدت لأجـــد طبيبـــا بجوار فراش « لورا » ، وقد ربط معصميها بالضمادات البيضاء .. ففزعت لفكرة محاولتهـــا الانتحار بقطع شرايين يديها ، ولكن الطبيب اكد لى أن المحاولة لم تكن جدية ، إذ انها عمدت — بعد خدش معصميها — إلى الصراخ . فاسرعت إحدى جاراتها لنجدتها .

وفى اليوم التالى — وهو يوم السبت — حظيت « لورا » بجلستها فى المستشفى . واقتصرنا على دراسة محاولتهـــا الانتحارية التمثيلية . فاعترفت بأن هدفها كان أرغامى على العودة من نيويورك ، بدافع من طبيعتها الأنانية التى لا تحمل شبهة الإهمال أو الهجر !

الحيوان النهم يستيقظ فى جوفها

على أن محاولة الانتحـــار كانت أعمق من ذلك ، فقد كان الدافع إليها مزدوجا : الشق الأول منه اعادة تمثيل هجر أبيها للبيت ، ولكن بخاتمة سارة فى هذه المرة بـ .. العودة !..

وأما الشق الثانى لدافع الانتحار ، فهو التكفير عن آثام مزعومة كانت تحس بأنها ارتكبتها فيما بين الثانية عشرة والرابعة والعشرين من عمرها .

لقد أثار سفرى إلى (نيويورك) ذكرى هجر أبيها لبيت الأسرة فخيل إليها أن محاولة الانتحار كفيلة بأن تردنى إليها، ولعلها كانت تعتقد أن مثل هذه المحاولة ـ قبل عشر سنوات ـ كانت كفيلة برد أبيها .. لو أنه علم بمرضها أو قرب موتها !

وتماثلت « لورا » للشفاء بسرعة . وعادت لجلساتنا وهى أكثر اتزانا ، وكأنما الموت الذى واجهته مواجهة واقعية قد رد إليها صوابها . وزودتنا اعترافاتها فى تلك الفترة بمادة طيبة للتحليل خلال الأشهر التالية .. كما أن « لورا » ذاتها غدت شديدة الاستقامة ، عفة اللسان ، محافظة ، رصينة !

واستمرت الحال على هذا المنوال عدة أسابيع ، لم تتخلف فيها الفتاة عن جلسة واحدة .. وظللت حائرا لا أهتدى إلى سر دائها الأصلى : داء الجوع الجنونى الذى كان يستولى عليها .

وفى ذات يوم ، تخلفت « لورا » عن موعدها ، دون أن تعتذر . وحاولت ممرضتى الاتصال بها تليفونيا ـ فى بيتها ـ فلم تتلق ردا . وفيما كنت فى البيت سمعت التليفون وأنا فى الحمام ، فلما خرجت علمت من زوجتى أنها رفعت المسماع فلم تتلق سوى زمجرة غامضة ، ثم ساد الصمت ..

وعلى مائدة العشاء غشينى شعور بالقلق ، رغم وجود

أصدقاء فى ضيافتى فى تلك الليلة .. وفجأة رن جرس التليفون ـ ونحن نحتسى القهوة ـ فقفزت إليه . وسمعت صوتا حيوانيا ، ينبعث من الحلق ، لم أسمع له نظيرا فى حياتى . وكانت مقاطعة غير مفهومة : « لو .. لو .. » . فهتفت وقد استنتجت اسم محدثتى : « لورا ؟.. أين أنت ؟» .

ـ فى .. البيـ .. ت .

ـ ماذا بك ؟ .. ماذا أصابك ؟

ـ آ .. كل !

ـ منذ متى وأنت تأكلين ؟

ـ لست أدرى .. فرغ الطعام .. جائعة ..! أدركنى !

ثم سمعت مسماعها يسقط ، ولم أتلق على ندائى المتكرر جوابا . فأسرعت إلى دارها .. وعبثا طرقت الباب ، فحاولت أن أدفعه ، ولكننى لم أفلح ، فوضعت فمى على ثقب المفتاح ورحت أناديها .. وأخيرا سمعت ما يشبه البكاء ، وصوتها تقول : « انصرف .. اذهب عنى ! » .

« لورا » .. بين الحيوانية والأمومة

ولكنها فتحت الباب أخيرا !

ودخلت الحجرة ، لأرى أعجب مستودع للقمامة : فتات ، وفضلات أطعمة على الأريكة والبساط والوسائد والمقاعد ..

ورحت أقاوم الغثيان ، ثم اقتحمت حجرة النوم ـ التى اختفت «لورا» بداخلها ـ وتحسست الجدار حتى عثرت على زر المصباح .. ورأيت فراشا كدست فوقه فضلات الطعام ،

وكأنه صندوق قمامة آخر . وفى ركن من الحجرة رأيت «لورا» مكومة على الأرض ، وقد غطت وجهها . فمددت إليها يدى وقلت : « هيا يا لورا ، قفى على قدميك ! » .. ولكنها لم تنهض ، فحملتها على الوقوف حملا . ونزعت يديها عن وجهها.

ورأيت منظرا لن انساه ما حييت .. رأيت شيطانا رسم آثار الرذيلة والانحطاط والشراهة ، على لحم ذلك الوجه المتورم . وكأن البهيمية كانت تطل من كل مسام تلك السحنة !

وفجأة ، فطنت إلى قميص النوم الواسع الذى تمسكه إلى كتفيها حمالتان من الحرير .. كان القميص أبيض اللون ، ناصع البياض — فى الأصل — فلطخته البقع والاوضار . ولكن ذلك لم يلفت نظرى . وإنما استوقفنى ذلك البروز الفظيع تحت خاصرتها ، وكأنها حبلى فى شهرها السابع على الأقل !.. وشهقت غير مصدق ، ثم امتدت يدى لا شعوريا إلى ذلك الموضع ، فلمست أصابعى ليونة غير متوقعة . فرفعت عينى متسائلا إلى عينيها . فلاحت على سحنتها المقلوبة مخايل ابتسامة . ثم فتحت فمها واقفلته لتقول :

— جنين ..

— جنين ؟ ابن من ؟

— ابن لورا .. انظر !

ثم رفعت ذيل قميصها رويدا فى حركة الثمل المترنح ، إلى ان صارت يداها فوق رأسها . ونظرت إلى جسدها العارى ، وإذا بى أرى وسادة مربوطة إلى بطنها !.. ثم أرخت ثوبها ، وسوت موضع الوسادة بيديها .. ثم غطت بهما وجهها

وانفجرت باكية وهى ترتمى على فراشها القذر : « أريد طفلا ! » .

ولم تلبث أن استغرقت فى نوم عميق ، فاستدعيت ممرضة خاصة للعناية بها ، وانصرفت .

وكان واضحا أن رغبة لورا العارمة هى إنجاب طفل ، وأن الشعور بالخواء ، الذى يحملها على أن تملأ بطنها بالأكل والشراب ، هو شعورها بخلو أحشائها من جنين .. والأمومة رغبة انثوية طبيعية ، ولكن لماذا اتخذت الرغبة لدى «لورا» هذه الصورة الملتوية ؟

وظل السؤال حائرا فى ذهنى ، إلى ان قدمت لى مريضتى الجواب — بعد شفائها فى نهاية الأسبوع — بفلتة لسان :

كنا فى عيادتى نبحث معا عن مغزى تحليلى لذلك اللغز ، ونستعرض المنظر . وإذا بى أسألها : « أهذه أول مرة تقدمين فيها على هذه التمثيلية .. تمثيلية الحمل والأمومة ؟ » .

فقالت بتردد : « لست أدرى .. لعلى اقدمت عليها من قبل . وربما أيضا أكون قد أقصيت الوسادة قبل انتهاء النوبة ، وكأنما حدث لى إجهاض . ربما !.. يخيل إلى ان شيئا من هذا حدث لى منذ سنتين . ولكنى نسيت ! » .

فقلت مازحا ، أخفى ارتباكى وحيرتى : « نقبى فى أرجاء مسكنك ، فربما وجدت « طفلا » احتياطيا مثل « العجلة الاحتياطية » فى السيارة ! » . وأجابت مازحة بدورها :

« لا أظن .. أحسبنى جديرة بأن أحظى بمعاونة « مايك » فى كل مرة أحبل فيها ! » .

ثم صرخت ووضعت يدها على فمها مذعورة .. لقد نطقت باسم أبيها « مايك » ، بدلا من اسم « بن » ، حبيبها !

وانبلجت العقدة الملعونة : عقدة عشق الفتاة لأبيها . فقد كانت فى سريرتها الباطنة تشتهى أن تنجب له طفلا . ولما كان هذا مستحيلا ، فقد راحت تشعر بأن الفـــراغ سيظل كائنا بداخلها .. وكان هذا الفراغ يؤلمها ، فتجنح إلى ملئه بالأكل والشراب ، وهو يأبى أن يمتلىء .. لأنه مستحيل الامتلاء ، بحكم التحريم الذى يحول بين الفتاة ومعاشرة أبيها جنسيا !



مسئولية الوالدين نحو تربية الأبناء !

« انا طبيب نفسانى ، التقى بحكم مهنتى بخليط من القتلة والسفاحين ، والمنحرفين جنسيا ، والمصابين بشهوة التعذيب ، أو جنـــون العذاب !٠٠ ومنهم من وصل فى انحرافه إلى حد العنف ، ومنهم من تجاوز ذلك الحد حتى حطم سواه ، أو امسى هو حطاما !

« وإلى لأجد من امانة العلم أن أميط اللثام للبشر عن خفايا هذه النفوس ٠ فليس هؤلاء الجناة إلا بضـعة منا ٠ وفى طوية كل نفس من نفوسنا بذرة هذه البلايا كلها ٠ إذ اننا بشر ، والبشر ضعاف ٠٠!

« فاليكم قصصهم ٠٠ وقــد حل علم النفس وطب التحليل النفسى رموزها ، وغاص فى اغوارها ، فاذا الانحراف مفهوم فى ضــوء العلم ، وإذا الشذوذ وقد ارتد إلى حادثة فى الطفولة ، أو نكبة من نكبات التربية الفاشمة ، أو مرض لا حيلة فيه ! » ٠

بهــذه الكلمات يفتتح العــلامة العــالمى الدكتور « روبرت لندنر » كتابه هذا الذى جمع فيه عصـارة تجاربه وخبرته النفســية والإنسانية ٠٠ وإنه ليسر (كتابى) أن يقدم لقرائه هذا الكتاب النافع ، ويبدأ فى هذا العدد بنشر أولى المآسى التى احتــواها ، والتى اختارها الطبيب العالمى من سجله الحافل ٠٠ وسوف نرى عند قراءتها مدى فداحة مسئولية الوالدين نحو تربية ابنائهم تربية سليمة :

لو أتيح لكم أن تروا « شـــارل » فى شارع من شوارع مدينتكم ، لما دلكم شىء من مظهره على انه قاتل اثيم ٠ ولقــد كان — عندما رايته فى السجن — محتفظا بنضارة الفتيــان المتصوفين ، الذين نراهم عادة فى صــفوف المنشدين فى الكنائس أيام الآحاد ٠ وآخر عهدى به هو فى سن العشرين ، وقد أوتى عينين زرقاوين تفضيان براءة وتســاؤلا ، وكأنه يعجب : هل قدر عليه أن تقوم تلك القضبان الفولاذية بينه وبين العالم الفسيح ، إلى آخر الدهر ؟

وكنت قد قرأت عن « شارل » قبل أن يودع ذلك السجن ، لأن فعلته كانت تحتل عناوين الصحف اياما متوالية ٠٠ ففى ذات يوم ، وفى مدينة ما ، وقفت فتاة شابة فى مدخل عمـارة سكنية ، وفى إحدى يديها حقيبة تحتوى على نسخ من الكتاب المقدس واســفار من التوراة ، واقراص عليهــا تسجيلات مواعظ مشهورة ٠ أما يدها الأخــرى ، فكانت تحمل جهازا صغيرا من اجهزة الحاكى (الفونوغراف) ٠ وتطلعت الفتاة المبشرة إلى أسماء مستأجرى مســاكن العمارة ٠ وجعلت تجرب جرسا بعــد جرس فلا تتلقى جوابــا ٠٠ واجراس المساكن فى المدن الأمريكية مثبتة فى صناديق البريد ، فى مدخل العمارة ٠ وفوق كل جرس علامة صغيرة تتحرك حركة خاصة إذا حدثت استجابة من صاحب المسكن ٠

وادركت المبشرة ان جميع المساكن خالية من اصحابها ٠٠ ولكنها حين ضــغطت الجرس الأخير تلقت ردا ٠ وانفتحت بوابة جانبية ، بحبل شــدته يد من أعلى تجذب المزلاج ٠٠

ودخلت لتجد سلما داخليا ضيقا . ولما شرعت فى الصـــعود سمعت صوتا يافعا يسأل من أعلى من القادم . وقبل ان تصل إلى الطابق الأول أبصرت شابا حديث السن يقف بجوار باب مفتوح ، ويتطلع إليهـــا بعينين زرقاوين ، فأدركت من حداثة سنه انه ليس رب الأسرة ، وابتسمت وسألته عن أمه وهل كانت موجودة فى البيت ، فأومأ بالايجاب وأشار بيده إشارة مبهمة نحو داخل المســـكن ، فسألته : « هل أســـتطيع ان أقابلها ؟ » .

— بالتأكيد !.. ادخلى ، فهى فى آخر البيت ، فى حجرة النوم !

ودخلت المبشرة ، فوجدت الدهليز يتجه إلى اليســـار ، فدارت معه واجتازت مطبخا صغيرا ، لمحت فيه ثلاجة فوقها أدوات نجارة ، ورأت فى الصدر باب حجرة النوم .. وبينما هى تجتاز عتبتها ، سمعت صوتها خلفها . وما أن التفتت ، حتى انهال الشاب على رأسها بمطرقة كانت فوق الثلاجة ، وتحول — بعد ذلك — فطعنها بأزميل ممـــا يستخدم لتقسيم ألواح الثلج ، تسعا وستين طعنة ، ثم ألقى بنفســـه فوق جثتها الدامية وانتهكها !

.. بعد الجريمة ؟!

ولما نهض شارل عن الفتاة التى قتلها ، غادر المسكن دون ان يقفل بابه بالمفتاح ، وراح يهيم فى الشوارع .. وكان اليوم من أيام الخريف المشرقة ، التى يحلو فيها التنزه على الأقدام . وما لبث الشاب أن شعر بالجوع ، فجعل يفتش جيوبه بحثا

عن نقود . فوجد عملة معدنية صغيرة ، اشترى بها قطعة من « الجيلاتى » ، سار يتحلبها فى بطء وتلذذ . ثم وقف فى الطريق الكبير ، يلوح بيده للسيارات إلى ان وقفت احداها فركب . وسأله السائق عن مقصده ، فقال له : « إلى نهاية الشـارع » .

— وما هذه المادة الحمراء التى تلطخك بهذا الشكل ؟.. على وجهك ويديك .. وعلى ثيابك أيضا !

فرفع شارك كفه وحك بها صفحة وجهه ، فارتدت إليـــه ملطخة بالدم الجـــاف . فقال بغير اكتـــراث : « كنت أطلى شيئا ، ويبدو أن الطلاء انتثر على وجهى ! » .

وضحك . وما لبث أن طلب من الرجل أن يقف ، ثم شكره ونزل .. حتى إذا بلغ أقرب محطة للبنزين ، دخل دورة المياه نغسل وجهه ويديه بعناية ، ومشـــط شعره ، وفرك اللطخ المتجمدة من الدم على قميصه وسرواله ، وغطى بياقة معطفه البقع الظاهرة فى صدر قميصه الأبيض ، ثم انصرف سائرا نحو البيت .

وفى منتصف الطريق ، رأى قسم البوليس ، فوقف يتطلع إليه برهة ، ثم عبر الشارع وولج المبنى .. ورأى جاويشـــا مكبا على أوراق فوق مكتبه ، فوقف أمامه صـــامتا هادئا .. إلى ان رفع الشرطى وجهه إليه ، فقال له شارل ببساطة : « هناك سيدة مقتولة فى المسكن (ب) فى عمارة جايلورد ! » .

وحك الشرطى مؤخرة رأسه ، وقال ببلاهة : « ومن أدراك أنها مقتولة ؟ » .. فكان جوابه : « لأنى أنا الذى قتلتها ! » .

وكان عدم الاكتراث الذى أبداه فى ذلك الموقف ، هو الطابع الغالب عليه الأيام الأولى من إيداعه السجن . وبعد تلك الأيام بدأت تنتابه حالات مغص وآلام فى المعدة وغثيان ورغبة فى القىء . وبعد ثلاثة أيام أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية .

صوت يحرض على القتل

ولم تفلح وسيلة من تلك الوسائل العادية التى تتبع فى عيادات التحليل النفسى لحمله على الكلام عن طفولته . وكان الوقت ضيقا والمحققون القضائيون يستعجلوننا . فقررت انا وزملائى حقنه بمادة « نيتوتال » التى تحل عقدة اللسان ، وتجعل الشخص فى غيبوبة شبيهة بالتنويم المغناطيسى . ثم جلست بجوار رأسه ، وبدأت الاستجواب بمجرد أن تأكدت من أنه كان يسمعنى ، فقلت له :

ـ إن الذى يكلمك الآن يا شارل ، هو الدكتور «لندنر» .. سأسألك بضعة أسئلة أرجو أن تحاول الإجابة عنها . وعليك ان تقول اى كلام يخطر ببالك فى صددها . والآن اسمع جيدا . لماذا أنت هنا ؟

ـ لأنى .. لأنى .. قتلتها !

ـ من هى التى قتلتها ؟.. ولماذا ؟

ـ فتاة .. لأن صوتا ظل يقول : اقتلها ، اقتل .. اقتل .

ـ من الذى قال لك أن تقتلها ؟

ـ صوت .. لا احد قال لى .. مجرد صوت .. لا ادرى من اين صدر .

ـ هل كان صوت أحد ممن تعرف ؟

ـ كلا .. لم أسمعه من قبل !

ـ وهل قال لك الصوت كيف تقتلها ؟

ـ كلا .. لا شىء ، فقط : اقتل .. اقتل !

ـ وكيف قتلتها ؟

ـ بمطرقة .. ضربتها بمطرقة ، ثم بالأزميل .. طعنتها مرات كثيرة .. طعنتها ، طعنتها . لم أستطع أن أتوقف ثم سقطت المطرقة على الأرض .. تحت الفتاة .. وكانت لزجة من الدم .

ـ وهل قال لك الصوت أن تقتلها بالأزميل ؟

ـ كلا .

ـ وهل كنت تسمع الصوت طول الوقت الذى ضربتها فيه ؟

ـ نعم كان عاليا : اقتل ، اقتل !..

ـ واين كنت تطعنها .

ـ فى كل جسمها .

ـ اليس هناك موضع معين ؟

ـ ثدياها !

ـ ولماذا اخترت ثدييها بالذات ؟

ـ يصنعان اللبن .

ـ وهل كنت تريد لبنا ؟

ـ لست ادرى !



— ومتى توقف الصوت ؟

— لا ادرى .. توقف فتوقفت .

— وماذا فعلت بعد ان توقفت عن طعنها بالازميل ؟

عندئذ تأوه « شارل » ولم يجب . فكررت السؤال ، وإذا بوجهه يتصبب عرقا. واخيرا ، تنهد وقال : «لست ادرى !». وتأوه ، وتلوى . فالححت عليه كى يتذكر ما اعقب ذلك من هتك لعرض الفتـاة . وبعبارات متقطعة ، ناقصـة ، راح الشاب يروى كيف كشف عن موضع العفة من الفتاة .. وكان يبكى وكانه واقع تحت تعذيب .. وتجلى من روايته انه مزق غشاء بكارة الفتاة باصبعه !.. وهنـا سالته : « ولمـاذا فعلت هذا ؟ » فاجاب : « لاننى كنت .. حانقا عليها ! » .

— ولكنها كانت قد ماتت . اليس كذلك ؟

فقال : « بلى .. كنت قد قتلتهـا ! » .. وجعل ينشج بالبكاء ، ويحاول تمزيق وجهه بيديه . فسألته : « هل كنت حانقا عليها مع علمك بانها ماتت ؟ » .. وإذ رد بالإيجاب ، سألته عن السبب فقـال : « لانى لم استطع ان اعثر على المكان ! » .. وكان يقصد موطن العفة !

— وهل الصوت هو الذى أمرك أن تفعل ذلك ؟

— كلا .. لا صوت !

— هل سمعت الصوت قبل ذلك اليوم ؟

— كلا مطلقا .. ولا بعده !

حياة عائلة مصدعة

وفى صباح اليوم التـالى قابلت « شـارل » فى مكتبى ، فحيانى ببشاشة والفة .. وسـألته عما علق بذاكرته من استجواب اليوم السابق ، فقال : « أتذكر جانبا يسيرا منه : الحقنـة ، والتعب ، والتعذيب ! » .. ثم أخـذ يلخص لى الأسئلة ، وانا اساعده .. وما لبثت ان سألته عما إذا كان لديه ما يضيفه إلى تلك الأقوال ، فأجاب بالنفى .

— ولمـاذا لم تخبر المحققين بهذه الحقائق يا شارل ؟

— لم تتح لى الفرصة . فلقد أصر المحامى على ان اعترف بجريمتى ، واترك للمحكمة فرصة الرأفة بى .. واظنه قرر ذلك بعد ان تشاور مع أمى .

— هل كانت أمك تعرف شيئا عن الصوت الذى حدثتنا عنه بالأمس ؟

— نعم .. فلقد أخبرتهـا بكل شىء فيما عـدا الجانب الخاص بانتهاك عرض الفتاة .

— ولمـاذا لم تسمح لك امك بان تتعلل بنوبة الجنـون امام المحكمة ؟

— كانت تخشى إثارة الضجة حول اسمها ، وتخشى ان يقترن بصفة الجنون ، لأنها تعمل بائعة فى أحد المحال الكبرى، وقد تفقد عملها بسبب الضجة .

— ولكن الصحف ذكرت الجريمة ونشرت اسمك ..



— هذا صحيح . ولكن أمى غيرت لقبها منذ زمن طويل ، فلم تعد تحمل اسم أبى . وانا شخصيا اعتقد اننى كنت مجنونا حين اقترفت تلك الجريمة . ومع ذلك ، فما كان ينبغى ان يحضرونى إلى سجن الإصلاحية . بل كان الأجدر ان يرسلونى إلى مستشفى لأعالج ..

— اتعتقد أن من الممكن ان تعود إلى مثل هذه الجريمة ؟

— لا ادرى .. اظن ان هذا محتمل !

— أتحب أن نبحث معا عن سبب اقدامك على ذلك العمل ؟

ورحب بالفرصة ، أملا فى أن يعصمه ذلك من تكرار ما فعل .. وعلى ضوء البيانات التى أدلى بها ، ادركت ان رابطة الزوجية بين والديه كانت قد اصيبت فعلا بصدع عميق ، قبل مولده . فزهد كل منهما معاشرة الآخر ، وضاق بالطفلين اللذين تمخض عنهما ذلك الزواج فيما بعد . بيد ان النزعة الدينية لدى الأم جعلتها تصطنع الرضى املا فى حفظ المظاهر إلى النهاية . إلا ان الأمور استفحلت فى العام الثالث من عمر شارل — أى العام الثانى من عمر اخيه الصغير — فما لبث الوالد ان اختفى نهائيا من حياة الأسرة !

امه تلقى به إلى الملاجىء !

ولجأت الأم إلى قسيس كنيستها فأشار عليها بايداع الصبيين فى مؤسستين للفقراء والأيتام . وهكذا ظل الأخوان خمس عشرة سنة يعيشان منفصلين تماما ، وهما يتنقلان بين

الملاجىء التى كانت — رغم ظاهرها — مباءات تسودها النظاظة والقسوة والانحلال ، فكان نزلاؤها الصغار المساكين ينمون كما تنمو الأعشاب فى الصحراء . شوكية الأوراق ، تائهة الجذور تبحث فى الأرض الضنينة عن ذرات الغذاء هنا وهناك ، فتنمو ملتوية اشد الالتواء .

وكانت الحياة التى عاشها «شارل» فى الملاجىء التى توالى عليها ، حياة فظيعة مروعة تكتنفها المخاوف والعذاب . ففى سن الرابعة كان المشرفون يجلدونه لأهون مخالفة للتعليمات ، أو عبث برىء ، مما يصدر عن ابناء تلك السن . فشب وهو ينظر إلى افعاله وسلوكه — بل وكيانه — نظرة التأثم والخزى . حتى إذا اشتد عوده قليلا ، تاصلت فيه الكراهية ، واصبح يجد لذته فى إيلام سواه . وانقلب من الناحية الجنسية . فبعد أن كان هدفا للاعتداء من كبار النزلاء المشرفين ، صار هو مصدر الاعتداء على من هم اصغر منه واضعف !

ولم يتح لشارل طيلة هذه السنوات — التى انقلب فيها من طفل برىء إلى ضحية ممزقة النفس والجسد ، ثم إلى شرس محب للعدوان — أن يرى والدته إلا مرات معدودة ، وفى زيارات خاطفة كانت تخلف شعورا بالنقص وعدم الإشباع !.. وكانت الأم تحمل إليه الهدايا ، وهى تبدو — على حد قوله — كأميرة من أميرات الأساطير ، فى بهائها واناقتها !.. ومع ان نفسه كانت تصبو دائما إلى زياراتها ، إلا ان جانبا من هذه النفس كان يكرهها ، لأنها كتبت عليه

هذه الحياة الأليمة . فاذا انصرفت ، كان الشعور بالفراغ والضياع يتكالب عليه ، فيشتد شقاؤه ، ويصب جام غضبه على من حوله وما حوله ، فى نوبات جنونية من القسوة والتحطيم ، غير مبال بفداحة العقاب !

وكان أمه تستدعيه إلى بيتها — فى بعض الأحيان والمناسبات — ليقضى فترة وجيزة يتذوق خلالها طعم الحياة .. فكانت هذه الفترات تزيد شقاءه بحياته فيما بعد ، حتى أنه هرب من المؤسسة التى كان نزيلا بها — فى سن الحادية عشرة — وهام على وجهه ، إلى ان التقى فى الحقول ببعض الشبان المطرودين من المدرسة ، فانضم إليهم ، وانس بصحبتهم طول النهار . وفى المساء ، عثروا بكوخ مهجور ، فأوتدوا نارا وجلسوا للسمر ، وهو معهم مستمتع بحياة الحرية . واخرج احدهم زجاجة خمر فشربوا منها وسقوه . ولما داعبه احدهم ، كان فى شبه غيبوبة . فاغتصبوه تباعا — وكانوا ستة — حتى إذا افاق فى الصباح ، لم يجد لهم اثرا إلا ما حمله جسده من تمزق الزمه المستشفى اسبوعين !

زعيم عصابة فى المدرسة !

وخرج من المستشفى إلى المؤسسة التى كان نزيلا بها ، وقد تحطمت لديه آخر الآمال فى صلات طبيعية ودية مع الناس . واصبح صعب القياد ، لا تطاق معاشرته ، حتى لقد طردته المؤسسة وهو فى الثالثة عشرة ، فاشتغل عاملا فى مزرعة يديرها شيخ قاسى القلب . وقضى هناك ثلاث سنوات، وهو اشبه ما يكون بالدواب فى معيشته ، وعزلته عن الناس.

وارهاق العمل له !.. ولكنه لم يلبث أن لاذ — وهو فى الخامسة عشرة — بأمه التى استقبلته استقبالا سيئا ، وحاولت ان تعيده إلى المزرعة ، وجعلت تسبه وهى تبكى ، ثم تحدثت إلى قسيسها الذى وعدها بأن يلحقه بمؤسسة أخرى من مؤسسات الأيتام ، تهتم بالتدريب الصناعى للأحداث .

وفى تلك المدرسة الصناعية الداخلية ، عرف « شارل » حياة العصابات الإجرامية على اتمها . فهناك ستة غلمان كبار يحكمون المدرسة ليلا بقوة اليد والسلاح الأبيض ، بينما كان سائر التلاميذ بمثابة حريم لهؤلاء الستة ، يتداولونهم فيما بينهم كما يشاءون . ولقد اظهر شارل — منذ الليلة الأولى — تفوقه فى الشراسة على جميع أعضاء العصابة ، فانقض بمديته على ظهر الزعيم ، بعد أن أوقعه على الأرض ، وشق قميصه من قفاه إلى مؤخرته ، ثم نقش — بسن المدية — الحرف الأول من أسمه على أحد ردفى الزعيم ، والحرف الأول من اسم ابيه على الردف الآخر . ومنذ تلك اللحظة ، صار شارل هو الزعيم الأوحد . ولكنه ما لبث — فى منتصف عامه السابع عشر — أن سئم المدرسة ومن فيها ، ولم يجد فى عمليات السطو الليلية — على المتاجر المجاورة لها — ما يسليه ، فهرب عائدا إلى أمه مرة أخرى !

وفى هذه المرة ، لم تستطع أمه أن تجبره على العودة إلى المدرسة ، فراح يبحث عن عمل ولكن فترات عمله كانت لا تطول بسبب شراسته وانحرافه . وكان قد قضى ثلاثة ايام متعطلا ، حين طرقت المبشرة بابه

بيت بلا باب !

وتركت لشــارل الحرية فى أن يرســم ما يشــاء اثنــاء اجتماعاتنا ، فاذا به يرسم — ذات مرة — صورة كروكية لبناء كبير يعلوه صليب ، ويحيط به سور مرتفع وإذ سألته عن ذلك الرسم ، قال انه احد الملاجىء الدينية الخيرية التى نزل بهــا وهو فى سن التاسعة . وقال وقد تقلصــت ملامح وجهه : « لقد كان بيتا كريها ! » .

— ولكن هذا البيت لم يؤت بابا يا شارل ؟

— كان له باب بالطبع ، ولكنى لم استخدمه مطلقا ، إذ كنت أقفز من فوق السور دائما .. اذهب واعود من غير ان يشعر أحد !

— وأين كنت تذهب حين تقفز السور ؟

— إلى بيت امى بالطبع .

— اليس من الغريب انك كنت تعــود دائما إليهــا رغم رفضها إياك ؟

فاختفت الابتســامة من وجه شــارل وتجلت فى نظرته الشراسة ، وهو يقــول : « واين تريد ان يذهب غــلام فى التاسعة ؟ كنت أتوقع فى كل مرة أن القى نتيجة مختلفة عن المرات السابقة !.. كنت أحلم بانها ستلقانى بين ذراعيها ، وتطلب منى ان ابقى معها دائما .. وربما الحقتنى بمدرســة عادية كسائر من هم فى سنى ! . وكان يغمض عينيــه . ثم ابتسم ابتسامة شاحبة واخذ يكرر جملة مرات قوله : « كسائر

من هم فى سنى .. الأولاد الذين يعيشون فى بيوتهم . ولهم أمهات !.. وكنت أصــبو إلى ان تصحبنى أمى إلى متجــر اشترى منه أشياء انتقيها وأجربها ! » .

— تجربها ؟ ما أهمية ذلك ؟ .

فضحك وهو يحملق فى وجهى ، وقال : « طبعا أجربها ، فاننى لم أجرب — طيلة عمرى — شيئا انتقيته من متجر .. كان كل شىء يفرض علينا — فى مؤسسات الأيتام — بلا انتقاء ولا تجريب . لم اتمكن من الفرح بشىء ، ولم اشعر مطلقا بأن ما البسه صنع لى أو ابتيع من اجلى . كنت أحس دائما ان ثيابى ليست ملكا لى ! » .

واستطرد شارل فى ذكريات عامه التاسع ، فروى لى كيف اخذته امه لقضاء عطلة عيد الميلاد عندها فى تلك السنة .. وفى الليل اطعمته امه مبكرا ، وطلبت منه ان ينام فى سريرها — بمخدعهــا الخاص — وليس على الأريــكة فى حجــرة الجلوس — كما يفعل فى زياراته القليلة السابقة — لأنها كانت تنتظر ضيوفا اعتزموا السهر إلى مطلع الصباح !

وحاول شــارل أن ينام ، ولكن الاســتطلاع ملك عليــه حواســه .. وحمله الضحك وموسيقى الحاكى والاحاديث ، على ان يغادر الفراش لينظر خلال ثقب الباب ، إلى أن تثلجت قدماه من شدة البرد ، فعــاد فى نحــو الثالثة صباحا إلى الفراش ، واستغرق فى نوم عميق حافل بالأحلام !.. ولكنه تنبه — فى ضوء الفجر — إلى يدين قويتين رفعتاه من الفراش ، ورأى وجه رجل غريب ، ضــخم الملامح ، [illegible] النــوم

ليستيقظ فى الضحى ، فيجد نفسه نائما على الأريكة فى حجرة الجلوس ومن حوله بقايا السهرة الصاخبة ! وحدثه شىء فى نفسه أن باب مخدع أمه موصد بالمفتاح !.. ولم يستطع ان ينسى تلك الليلة.

وتغيرت الأوضاع بعد تلك الزيارة . فصار يزور بيت امه بروح من العداء تشوب شوقه .. ووجدت راهبات الملجأ فيه قسوة ونزعة شر — من ذلك الحين — لم يستطعن لها تفسيرا حتى لقبنه بالشيطان .. وكان يتلذذ بألوان العقاب التى كن يوقعنها عليه ، لأنه كان يجد فيها دليلا على غيظهن !

السر فى .. صندوق !

وتحسنت باسترجاع هــذه الذكريــات حالة شــارل ، فأصبحت أســمح له بالتجول معى داخل بنــاء مستشفى السجن . وكان يحمل لى بعض أدواتى وأنا اتفقد المرضى . ولكنى لم اسمح له مطلقا بحمل صندوق العقاقير برغم إلحاحه فى أن أريه محتوياته !

وفيما كنت أصعد إلى غرفتى الخاصة بالمستشفى — ذات يوم — وقد استسلم الجميع للركود الذى يرين فى ســاعات الظهيرة ، انتبهت إلى خطوات خلفى ، فلمــا التفت وجدت شارل ورائى مباشرة . وداخلنى خوف شديد ، فقد كنــا فى عزلة كاملة ، ولو انه هاجمنى لقضى على قبل ان يشعر بذلك احد ، لا سيما وانه كان مجنونا خطــرا قتل وهو تحت تأثير الجنون . وسألته عما كان يريد ، فأجبنى بصــوت أجش :

« الصندوق . أعطنى الصندوق ! » .. وعدت أســأله عن السبب ، فقال : « أريد ان أرى ما بداخله ! » .

— ولكنك تعرف أن بداخله عقاقير للمرضى .. ومحظور ان أسلمه لأحد !

— بل أريده .. يجب أن أحصل عليه !

— لقد رأيتنى أخرج منه العقاقير مرارا ، ورأيتها بنفسك

— لم أر كل شىء . أريد أن أرى القاع . من فضلك !؟

وطمأنتنى كلمة الرجاء فتشجعت وقلت : « انك لست على ما يرام يا شارل ، فاذهب الآن ، وسنتحدث فى أمر الصندوق غدا ! » .

— انك لم تفهمنى يا دكتــور . لابــد من أن أرى ما فى الصندوق !

— وهل إذا أريتك كل ما فيه ، تعود إلى زنزانتك ؟

— أحقا سترينى كل شىء ؟

— طبعا . هيا معى إلى مكان فيه مزيد من الضوء ..

وهبطت السلم وهو يتبعنى مسرورا ، إلى ان دخلت على الممرضة صاحبة النوبة ، وجلست إلى مكتبهــا ، وافرغت محتويات الصندوق كلها ، ثم أعطيته الصندوق فارغا ، فجعل يقلبه بين يديه . ثم وضــعه وهو يتنهــد بارتياح وشكرنى وانصرف !

وفى اليوم التالى اقبل شــارل مشرق الوجه ، هــادىء النظرات ، فحيانى بلطف ثم جلس ، ونظر إلى الصندوق نظرة استطلاع واستفهام . وأعطيته المفتاح فى هذه المرة ، ففتحه

وافرغ ما فيه ، واحدا واحدا . وكنت قد وضعت فيه مسدسا ما يلعب به الأطفال ، وسكينا صغيرا قلبها بين يديه ، ثم قال : « ليست هذه .. اننى أبحث عن شىء آخر ! » .. وضحك مردفا : « أقسم أننى كنت معتقدا بوجوده فى الصندوق أمس ! » .

وهنا سألته عن الشىء الذى كان يتحدث عنه ، فكان جوابه ! « الخاتم » .. وقال حين استوضحته : « خاتم زواج أمى ! » .

يطلع على أسرار أمه !

وتدفق يحدثنى عن ذلك الخاتم . فلقد حدث أثناء زيارته لأمه — وهو فى الثالثة عشرة من عمره — أن راح ينقب فى أرجاء المسكن — بعد خروج الأم إلى عملها فى المتجر — وإذا به يعثر على صندوق مقفل فى مخدع نومها ، وقد دس تحت الوسائد والحشايا الزائدة عن الحاجة . فخيل إليه أنه مقبل على سر يتعلق بأمه . وأحضر — من المطبخ — الأزميل الذى يكسر به الثلج ، ثم رفع الوسائد وعالج قفل الصندوق بالطريقة التى تعلمها من رفقاء السوء . وأخرج محتوياته واحدا بعد واحد ، فاذا فيه رزم من خطابات لم يفقه لها قيمة — وقد ربطت بالحرير — ومجموعات من الصور القديمة الباهتة . وأخيرا عثرت يده بصندوق معدنى جعل يقلبه بين يديه ، إلى أن عثر بالطريقة السرية التى يفتح بها . وهناك وجد دبابيس ذات رؤوس من الماس الصناعى ، وعقدا من اللؤلؤ وقلادة من الذهب الثقيل ، وخاتم زواج مرصعا

بماسات صغيرة . ووجد تحت هذه مجموعة من أوراق النقد فئة العشرة دولارات ، فدس إحداها فى جيبه ، ثم أقفل الصندوق ورد كل شىء إلى مكانه بعناية فائقة !

وصار شارل يفتح الصندوق الكبير — فى كل يوم — ويطالع جانبا من الخطابات ، أو يحل ألغاز الصور القديمة ، وبهذه الوسيلة عرف كثيرا من الحقائق . عرف مثلا أن والده لم يمت — كما قالت أمه — وإنما هو قد تزوج امرأة أخرى فى مدينة بعيدة . وكان يحرص — قبل أن يقفل الصندوق الكبير — على أن يفتح الصندوق المعدنى ، ويستبقى خاتم أمه فى يده بعض الوقت !

وقد ظل هذا الخاتم محور أحلامه نائما ويقظانا ، طيلة العامين اللذين قضاهما فى المزرعة . ولم تتجسم أهمية ذلك الخاتم لديه ، إلا بعد هربه من المزرعة . فقد كان أول شىء حرص على التنقيب عنه فى لهفة وتوجس ، بمجرد أن سنحت له الفرصة ووضعه فى جيبه ، كما أخذ ورقة من ذات العشرة دولارات ، وخرج هائما على وجهه . وكان قد بلغ السادسة عشرة ، طويلا ، مفتول العضل ، لوحته الشمس . وتوجه إلى مدينة الملاهى . فراهن على إصابة الهدف . ولكن يده كانت مضطربة ، فخسر !

ثم دخل حانة — فى حارة منزوية — وطلب قدحا من البيرة . وفيما كان يرتشفه ، استلفتت نظره امرأة عارية الرأس ، وقد طلت وجهها بالأصباغ الثقيلة . وإذ ابتسمت وأشارت له بأصبعها ، حمل كوبه وجلس إلى مائدتها . فسألته أن يطلب

لها كأسا ، قلبى مضطربا . ثم سألته عما كان معه من نقود ، وطلبت أن يسلمها إياها ، ففعل .. وكانت خمسة دولارات صحيحة ، وحوالى دولار من النقود المعدنية ، وجمعت المرأة الدولارات الصحيحة كلها ، فدستها فى صدرها ، ثم نقدت الساقية ثمن كأسها من النقود المعدنية ، وغادرت الحانة ، فقادت الفتى إلى حجرة مظلمة ، فى بناء حقير كريه الرائحة .

ووقف ينظر إليها ببلاهة — وهى تخلع ثيابها بطريقة آلية — فأدركت أنها تجربته الأولى مع النساء . وترفقت به ، ولكن بغير جدوى ، فرفعته وهمت بارتداء ثيابها ، ولكنه صاح : « تمهلى دقيقة واحدة .. أرجوك ! » .

وفتش فى جيوبه بسرعة ، إلى أن عثر بخاتم زواج أمه ، فوضعه فى أصبع المرأة . ولكنها تقبلت الأمر بغير مبالاة ، وإذا به ينقض عليها انقضاضا أدهشها ، حتى أنها قالت وهى ترتدى ثيابها فى النهاية : « ما أعجب أطوارك . كنت أظن أنى رأيت من عجائب الرجال كل شىء ! » .

ضحية غير مقصودة !

وبهذه القصة أميط اللثام الأخير عن عقدة « شارل » المكبوتة ، من جهة أمه ، ، فصار من الممكن إعادة بناء جريمته على ضوء مكنونات اللاشعور ، بعد أن فهمنا دوافعه كلها .

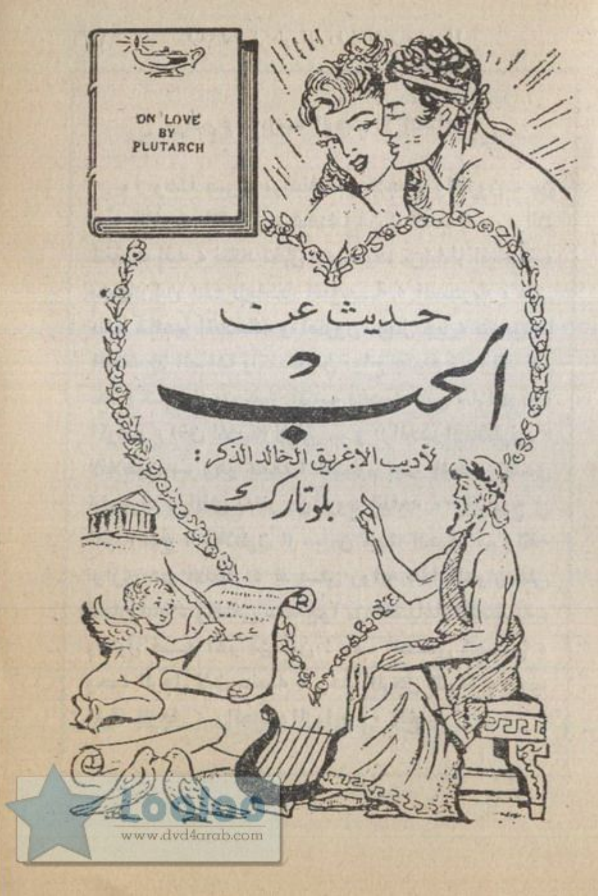
فلقد ذاق الفتى كل معانى اليتم ، بينما كان أبواه على قيد الحياة .. وذاق النبذ من أمه متكررا فى قسوة ، مما سبب له كبتا والتواء .. إذ حرم من كل المقومات العاطفية التى يحتاج إليها نمو الطفل نموا سويا !.. وهذا النبذ الكلى — الذى حرمه من ألزم وأمس احتياجاته العاطفية — بعث فيه

جوعا ضاريا ، من الناحية العاطفية . فلما وصل إلى سن المراهقة ، كانت ظروفه الشاذة قد صاغت منه وحشا لا يستطيع أن يرضى غرائزه واحتياجاته إلا عن طريق العنف والانتواء والتحطيم .

ومن الواضح ، فى ضوء علم النفس ، أن ضحية جريمته — الفتاة المبشرة — لم تكن هى الضحية المقصودة ، وإنما كانت مجرد بديل دفعت به يد المصادفة ليحل محل الأم . فإن شارل بهذه الجريمة المضاعفة لم يقتل ولم يغتصب تلك الفتاة ، وإنما كان يقتل ويغتصب أمه . فلقد استيقظ الفتى — فى يوم الجريمة — بعد خروج أمه لعملها .. وكان فى اليوم السابق قد زار تلك المومس لأول مرة فى حياته ، فشعر أنه محتاج إلى مزيد من المال ليكرر الزيارة . لهذا انصرف إلى فتح الصندوق . ولأمر ما استعصى الصندوق عليه . وأحضر المطرقة والأزميل وكل أدوات النجارة التى وصلت إليها يده . وإذا بجرس الباب يرن . وفتح ليجد أمامه امرأة تسعى بقدميها نحوه . ولم يعنه شكلها وسنها .. فقد انبعث الصوت من داخل وجدانه يحفزه إلى القتل انتقاما من الحرمان الذى أصابته به أمه .. فقتل .. وبعد أن قتل اغتصب !

ألا ترون إلى هذا الفتى كيف انهال على القتيل يطعنها فى ثدييها بوجه خاص .. وما ذلك إلا لأنها كانت تمثل عنده الأم التى حرمته حنانها .. وحنان الأمومة ترمز له الأثداء أكثر مما ترمز له سائر أعضاء الجسد !

ولكن هذا الدافع كان لا شعوريا لدى شارل ، كما تفسره الإجابة عن أحد الأسئلة الأولى التى وجهتها إليه .. فهو لم



يكن يدرى ، اكـــان **يبغى من الثدى** لبنـــا أم لا !.. ذلك أن الدافع اللاشعورى هـــو الذى يسبب الجماح والشـــذوذ النفسى ، ويدفع إلى الإجرام. ولو كان واعيا لانحلت عقدته ، ولما اقدم على فعلته .

وما كان تمزيقه عذرة الفتاة المقتولة بأصابعه ، إلا إمعانا لاشعوريا فى الاعتداء عليهـــا . وقد تعلم فى طفـــولته التى قضـــاها فى الملاجىء أن الفعـــل الجنسى هو قمـــة الإذلال والعدوان .

كذلك لم تكن صورة أمه ، وهو يحلم باللجوء إلى حضنها ، إلا لونا من الرغبة الطفلية ، التى حولها الحرمان والنبذ إلى حب محرم كحب أوديب .

اما صندوق العقاقير الذى كان يريد باى ثمن ان يرى ما كان بقاعه ، فهو شبيه بصندوق ذكريات أمه ، الذى كانت تخبىء فيه اسرار حياتها المطوية عنه .. الصندوق الذى عثر فيـــه على خاتم زواجها من أبيه ، وعلى خطاباتها التى كشفت له سر علاقاتها الخاصـــة ، كما كشفت له عن أن والـــده حى يرزق ، يعيش مع زوجة ثانية .

وترجع قيمة خاتم زواج أمـــه ، إلى انه رمز اقترانه بتلك الأم اقترانا شاذا ، كما فى عقدة أوديب . ولذا وضع الخاتم فى أصبع المومس لتهيج رغبته فى جماعها ، .. إذ انها بذلك تأخذ لديه صورة الأم المشتهاة !

وهكذا تجلى السبب الأصلى للجريمة .. وهكذا ـ ايضا ـ حلت عقدة الشاب ، ولكن .. بعـــد أن تحطم هـــو ، وحطم سواه ، نتيجة جهالة المجتمع ، وقسوة الأم !

موضوع لا يزيده البحث الا اتساعا !

.. وهذا صوت يواتينا عبر الأجيال والقرون ، من عهد الاغريق القدامى ، ليحدثنا عن ((الحب)) .. وانك لتنصت إليه ، فتكاد تخال انه صوت من ايامنا الراهنة ، يحدثك عن هذه العاطفة العجيبة ، السحرية ، التى طالما عالجها الفلاسفة والمفكرون، فى كل جيل، فلم يزدها البحث إلا اتساعا وتكشفا عن نواح جديدة .. ولقد قدم لك ((كتابى)) من كنوز الكتب القديمة التى تناولت هذا الموضوع ((فن الحب)) لأوفير — و ((الحب الأفلاطونى)) لأفلاطون — وهو يتبعهما اليوم بهذا البحث الشيق لبلوتارك ، الذى يعتبر من اروع إنتاجه . وقد نهج فى كتابته نهج ((افلاطون)) — من حيث الحوار — ولكنه توارى عن الأنظار ، إذ ساق رواية هذا الحوار على لسان ابنه ، واضفى عليه جوا من الصياغة القصصية ، وتناول فيه اكثر من لون : حب الصديق للصديق ، وحب الرجل لابن جنسه ، وحب الرجل للمراة ، وحب المراة للرجل ، والحب والزواج .. الخ .

قضية ((الحب)) تعرض على ((بلوتارك))

كانت تقيم فى (طيبة) سيدة تدعى « أسمينودورا » ، أوتيت ثراء وحسبا ، ونعمت بحياة مثالية ، وقد عاشت أرملة زمنا دون ما تثريب ، رغم انها كانت شابة وجميلة المنظر . وكانت أم « باكشون » الشاب صديقة لها ، ومن ثم تعددت مقابلاتها ، فاذا «اسمينودورا» تميل إليه .. وسمعت عنه اطراء ومديحا ، كما لاحظت أن كثيرا من الممتازات ، كن يعشقنه ، فهامت به هى الأخرى ، ورغبت فى ان تتزوج منه ، وتقضى بقية عمرها معه .. وكان الاقتراح غير عادى ، فساورت أم « باكشون » الوساوس . كما أن رفاق الشاب — فى الصيد — راحوا يتفكهون بفارق السن بينه وبينها ، فكانت هذه السخرية أشد عرقلة للزواج من حجج الجادين.

على أن « باكشون » اغضى عن كل ناصحيه إلا اثنين ، هما « انثيميون » — ابن عمه ، الذى كان لا يجد مبررا لحرمان الشاب من أن يسعد بالزواج من امراة مثرية تحبه — و « بيزياس » الذى زعم ان زواجا كهذا يعتبر تضحية بشاب مثل « باكشون » . حتى إذا احتد الجدال بينهما ، جاءا إلى أبى (بلوتارك) يحتكمان إليه . وانبرى من مجلس أبى « دافينوس » ليدافع عن وجهة نظر « انثيميون » . و « بروتوجينس » ليدافع عن رأى « بيزياس » .

حب الفتيان هو الحب ((الصادق)) !

وبدأ « بروتوجينس » بالعيب فى « اسمينودورا » ، وقال : « لا تتصوروا اننى اشن الحرب على الحب ، فالواقع اننى أذود عنه النزوات الجامحة .. أن الزواج ضرورى لتكاثر

النوع ، ومن ثم عنى مشرعونا بأن يحيطوه بضمانات وقداسة .. ولكن الحب الصادق يختلف عن تلك العاطفة التى تحسونها نحو النساء والفتيات ، والتى تشبه « حب » الذباب للحليب ، والنحل للعسل ، فهى تسمن عليه فى الظلام !.. ان الإفراط فى الشهية يسمى شرها ونهما .. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالسرور المتبادل بين الرجال والنساء ، سرور كل بصحبة الآخر . فانه إذا عنف واشتد وتجاوز الحد ، لا يجوز ان يسمى حبا . إن الحب النبيل ، الذى يربط الإنسان بروح شابة ، يزدهر فى طريق الصداقة . اما اشتهاء النساء ، فلا يعود على الرجال – فى خير حالاته – إلا بمتعة الجسد فحسب .. والخمر والسمك قد لا يحبان المرء ، ولكن المرء – يجد متعة فى تناولهما !.. والحب إذا فقد الأمل فى الصداقة ، يفقد رغبته فى الدوام والبقاء .. ومن ثم فليس ثمة سوى « حب » صادق واحد ، هو حب الفتيان ، إذ انه لا يشبع بالشهوة .. اما الحب الآخر الذى لا قوام له ، والذى لا يحيا إلا بين الجدران وعلى صدور النساء وفراشهن . والذى يسعى دائما وراء الملاذ الناعمة التى لا رجولة فيها ولا صداقة ، فخليق بأن ينبذ !.. ان الصداقة شىء نبيل مهذب ، ولكن اللذة شىء مستهجن مسترذل ! » .

وهنا قال دافينوس : « انك تردد آراء سولون ، الذى قال : « لاطف الغلمان فى نضارة الصبا ، وربت أردافهم الطرية ، وارشف شفاههم العذبة » !.. وانا اعتبر هذا القول حجة فى صف النساء ، وإذا كان الجماع الشاذ مع الذكور ، يدمر أو يؤذى عاطفة العاشق ، فان حب النساء ،

او حب الرجال – وفقا لما فرضته الطبيعة – خليق بأن يؤدى إلى الصداقة ، خلال التعاطف والرضى .. والتعاطف والرضى ، هما ما كان الأقدمون يعرفونهما بـ .. تسليم المرأة للرجل !.. ولابد للرضى من أن يكون متبادلا ، فان مجامعة الذكور على غير رضاهم ، نوع من الاغتصاب .. بل إن مجامعة الراغبين منهم تكون بشعة ، خالية من السحر ، إذا كانوا متأنثين ، منحلين فى تصرفاتهم . ولو أننا بحثنا حقيقة الأمر ، لوجدنا ان الشغف بالفتيان والشغف بالنساء ينبعان من « حب » واحد . فاذا اصررت يا بروتوجينس على التفريق بين العاطفتين – من قبيل الجدل – لوجدت ان حب الفتيان أشبه بالنسل الذى يأتى فى غير الأوان . وبطريقة غير مشروعة ، فهو يطرد « الحب » الذى يكبره سنا ، والذى يتسم بالصبغة الشرعية .. فمنذ بدأ الفتيان يتعرون فى ساحة الألعاب الرياضية ، استشرى ذلك الحب وجمح ، واصبح يسىء إلى الحب الزوجى النبيل ، الذى يضمن الخلود لنوعنا الفانى ، إذ انه بالتناسل يذكى شعلة بقاء نوعنا » .

مال الزوجة يذيب شخصية الزوج

وعند هذا الحد ، انفجر بيزياس قائلا : « يا للقحة !.. ايعترف الرجال بأنهم مرتبطون إلى الإناث بأعضائهم الجنسية كالكلاب ؟ ».. فقاطعه أبى (بلوتارك) قائلا : « كأنى ببيزياس يرى فى الزواج علاقة خالية من الحب والصداقة ، وهما من النعم القدسية !.. ان العلاقة الزوجية بغير حب لا يمكن أن تمارس إلا بمشقة وخجل وخوف .. كما تساس الخيل بالسرج والسوط ! » .

وهنا قال بيزياس : « اننى اعلن صراحة ان رايى هو : ان فى وسع كل امراة ان تحرز عاشقا ، ولكن اى شاب يجب ان يأخذ حذره من ثروة اية امراة . اننا إذا مزجنـاه بالأبهـة والرفاهية ، اذبناه كما يذوب القصدير فى البرونز . وانا لنرى ان اسمينودورا تبغى التسلـط والسيطرة . وإلا ما رفضت خطابا من ذوى المكانة والثراء ، لتستحوذ على فتى يافع فى حاجة إلى مرضعة !.. من اجل هذا يحرص الأزواج العاقلون على ان يقتضبوا ثراء زوجاتهم ــ إذا زادت عن الحد ــ كما يقص المرء ريش جناحى الطائر . لأن المال هو الذى يجعلهن شهوانيات ، رعناوات ، متقلبات، مغرورات، وغالبا ما يطرن من اعشاشهن !.. وحتى إذا استقررن فى بيوتهن ، فمن الخير للرجل ان يكون مكبلا بأغلال ذهبية ــ كمـا يحدث فى الحبشة ــ عن ان يكون مغلولا بثروة زوجته ! » .

فأضاف بروتوجينس : « ثم أن الحكيم هسيود ينصح بأن لا يتجاوز الفارق بين عمرى الزوجين اربع سنوات ، فى حين اننا نوشك أن ندفع بفتى لم يستكمل نضجه إلى امراة تـكبره بسنوات كثيرة .. ولو انها كانت متزنة، ذات حياء ، لقبعت فى بيتها فى انتظار الخطاب .. وما اجدر الرجل بأن يتجنب امراة مقيتة تعلن حبها جهارا ! » .

لا ترفض المراة لمجرد ثروتها وجمالها !

فقال ابى : « بأى حق ننبذ اسمينودورا لمجرد انها تحب وانها غنية ؟.. وما ذنبها إذا كانت جميلة وشابة ، وذات عزة وحسب ؟.. ثم . ما اكثر الأمثال على مسـاوىء الزوجات

اللائى بلا اصل ولا حسب ولا جاه .. لقد كانت «سميراميس» السورية وصيفة ومحظية لعبد من ابناء جوارى الملك نينوس، فقدر للملك ان يقع فى هواها ، فاذا بها تتسلط عليه ، وتحط من قدره ، حتى لقد سألته يوما ان يسمح لها بأن تجلس على العرش ، وان تلبس التاج وتدير امور الدولـة . ووافق ، وامر بأن يقدم لها من الطاعة مثل ما يقدم إليه . ولم تستغل سلطانها إلا باعتدال ــ فى البداية ــ لتبلو الحراس ، ولكنها لم تكد تلاحظ انهم كانوا يطيعونها فى غير تردد ، حتى أمرت بالقبض على نينوس ، وبتكبيله بالأغلال ، ثم بقتله اخيرا .. ثم حكمت آسيا حكما زاهرا لسنوات عدة !.. وكما ان امثال الرجل ــ نينوس ــ وقعـوا فى ضلالهم فرائس للنسـاء ، بسبب لينهم وافتقارهم إلى القوة ، فان هناك ــ من ناحيـة اخرى ــ كثيرا من الرجال الفقراء المغمورين ، الذين تزوجوا من مثريات حسـان ، فلم يفسـدوا ولم ينزلوا عن ذرة من كرامتهم ، بل عاشوا محترمين من زوجاتهم ، يسوسونهن فى رفق وطيبة نفس . اما الرجل الذى ينزل من قدر زوجته ، فمثله مثل السائس الذى يقص شعر الفرسة ، ثم يقودها إلى الغدير ، فاذا ما رات صورتها منعكسة على المـاء وقد شاه بهاؤها ، صهلت فى حسرة ، ثم رضخت للحمار !

« واختيار المراة من اجل ثروتها او جـاه اسرتهـا عمل مستهجن وضيع ، ولكن تجنب الثراء إذا كان مقترنا بالفضيلة والجاه . حماقة وغباء .. وليست بزوج الفنيـة او الجميلة حاجة إلى ان يجعل زوجته فقيرة او قبيحة ، إذ أن فى وسعه ــ بضبط النفس وبالحكمة وبعدم الانبهار بميزاتها عليه ــ

ان يحقق التوازن ويحفظ كرامته ويزيد من قوة شخصيته ، ومن ثم يستطيع ان يحكم امراته ويسوسها فى عدل ، وبطريقة تحقق النفع لكليهما .

« اما عن فارق السن ، فان اسمينودورا لا تزال فى سن مناسبة لأن تحمل وتلد ، وهى ليست اكبر من كثير من مزاحماتها .. ثم ان الشباب صعب المراس ، عسير الترويض، لا يطرح عنه عناده وكبرياءه بسهولة . ومن ثم فان زواج الشاب من شابة صغيرة ، يتسم بالعجز عن حكمها ، وبعدم انصياعها لحكمه !.. وان المربية لتحكم الطفل ، والمدرس يحكم التلميذ ، والقانون والمشرعون يحكمون الرجل إذا بلغ سن الرشد . فما من مرحلة من مراحل العمر دون حكم ، فلماذا نستنكر ان تتولى امراة ذكية ، ناضجة ، قياد حياة زوج يصغرها ؟.. لسوف تنفعه حكمتها الناضجة ، وتحنو عليه بحبها » .

تصرف امراة استبد بها الحب

وفيما كان الجدل دائرا ، اقبل من روى ان اسمينودورا — وقد اطمانت إلى ميل باكشون إلى الزواج منها — استعانت بفريق من الذكور المخلصين لها ، ومن الإناث المقربات إليها ، وتربصت حتى إذا مر باكشون ببابها ، نادته . واسرع رجالها بحمله إلى داخل الدار ، ثم احكموا رتاج الباب .. وخلعت النساء عنه إزاره والبسنه حلة الزفاف . وقام الخدم بتزيين دارى اسمينودورا وباكشون بالزهور ، بينما سارت فتاة فى الحى تعزف على الناى .. وانقسم الناس فريقين : فريق

راق له أن يشهد ما كان يجرى ، وفريق استنكره وغضب من اجله . فبادر « بيزياس » إلى الانصراف ، وكانه منطلق إلى معركة .

وقال انثيميون عقب انصرافه : « لقد كان تصرفا اتسم بالتهور والجراة الوقحة . ولكنه — فى الحق — تصرف امراة استبد بها الحب .. ومع ذلك فاين فى مدينتنا من تفوق اسمينودورا احتشاما ؟ ومتى حوم حولها اى شك ، أو مستها اية قصة فاضحة ؟.. ومن ثم فانه يبدو ان دافعا قدسيا استولى على المراة .. قوة أعتى من حساب البشر ! » . فابتسم احد الحضور ، وقال : « حقا ، ان ثمة داء فى الجسد يسميه الرجال « قداسة » . وما ينبغى ان نعجب إذن ، إذا وصف بعض الناس أهوج شهوات العقل بأنها قدسية ! ولكنى أحب أن اعرف ، ما الذى دعا الأقدمين إلى ان يعلنوا ان الحب إله ؟ » .

هل الحب إله ؟!

فقال ابى : « انه لسؤال عظيم الخطر .. إن الحب شىء تراه بعقلك ، ولكن عينيك لا تبصرنه . وكذلك الإله لا تراه الأعين ، وإنما يجب ان تؤمن به العقول ، على اسس ما توارثته من عقائد . ولو انك امعنت فى طلب البرهان على وجود كل منهما ، لما كانت ايهما بمنأى عن المزاعم والتساؤل .. ان يوريبيدس يقول : « الا ترى عظمة الربة افروديت ؟.. انها هى التى تهب الحب وتغذوه ، فاذا نحن ثماره على الأرض ! » . وان امبيدورس ليسميه « مانح الحياة » ،

وسوفوكليس يدعوه « المثمر » . ولــو لم يكن هناك حب ، لفقد كل شيء سحره . فالجماع بدون حب اشـبه بالجـوع والظمأ .. قد تشبع الأول ، وتروى الثـانى ، فاذا نتاجهما (الفضلات التى تفرزها المعدة) ليس بالشيء البديع !.. اما إذا وجد الحب ، فان الربة افروديت تروى الظمأ إلى اللذة ، وتخلق المودة والاندماج .. وقد ذهب الحكيم هيسود إلى ان الحب هو اول الخلق طرا ، وبفضله تشاركت الأشـياء فى الخلق !.. ثم كيف يكون للعداء وحب الحرب والصراع إله ، ولا يكون للمحبة والتوافق والانسجام إله ؟.. وكيف نؤمن بأن للحرث والبذر والانبات آلهـة ، وليس لانجـاب الصغار ورعايتهم إله ؟ » .

واستطرد ابى قائلا : « اننا نقسم الآلهة حسب سلطانهم ونفعهم . ووفقا للقيم البشرية ، نجد ان تقدير ذلك يقـوم على اسس السيادة والتفـوق ، فعلينا الآن ان نبحث ما إذا كان الحب أقل سلطانا من اى إله من الآلهة .. وهنا يجب ان نلاحظ لفورنا أنه بدون الحب ، تغدو وظيفة افروديت ـ ربة الجمال ـ خدمة يمكن شراؤهـا بدورهم ، وما من إنسـان يتجشم العناء ويخوض الخطر فى سبيل الجماع ما لم يكن تحت سلطان الحب . ولكم يغدو وصــال افروديت تافهـا تمجـه النفس ، إذا خلا من إلهام الحب !.. وفى وسعكم ان تدركوا ذلك . إذا عرفتم أن كثيرا من الرجـال يشركون سواهم فى وصال خليلاتهم ، بل وزوجاتهم .. حتى لقد دفع التنـافس السياسى يوما احد ساسة (ارجوس) إلى أن يقدم زوجته

الملك خليلة .. اما مع الحب ، فكم من رجل وقف فى وجـه طاغية من أجل حبيبته !

« والآن ، استعرضوا أعمال « آريس » ـ إله الحرب ـ وانظروا مدى تفوق « الحب » عليه ! فالإنسان المفعم بالحب لا يحتاج إلى « آريس » ليقابل أعداءه ، وإنما هو دائما على استعداد ـ وهو يشعر بأن إلهه بين جوانحه ـ لأن يخوض النار والبحار وطبقات الاثير ، من أجل حبيبه ، وليحقق له كل ما يطلبه . وان هوميروس ليقول فى الياذته ان « الحب وحده هو الحصين المنيع بين القادة » . فان الرجل قد يهجر أهله وعشيرته ، بل وأبويه وأولاده ، ولكن لم يقدر قط لعدو أن يفرق عاشقا ملهما عن محبوبه ! بل ان العاشق يتلهف ـ ولو لم يكن ثمة داع ـ لأن يعرض حبه للمخاطر واستهانته بالحياة أمام معشوقه . ومع أنه لا شأن للنساء بإله الحرب . ، إلا أن الحب إذا تملكهن ، دفعهن إلى إقـدام يجـاوز طبيعتهن .. وقد يسوقهن إلى الموت !

« وإذا صحت الأساطير كأدلة ، نجد أن « هاديس » ـ إله الموتى وملك الجحيم ـ لا يعرف رحمة ولا محاباة ، ولكنه رغم قسوته يحترم العشاق ، وعليهم وحدهم لا يقسو !

الحب يشحذ المواهب لدى العاشق

« أما وقد استعرضـنا قوة الحب العظيمـة ، فلنفحص رافته ولطفه بالجنس البشرى .. ولست [illegible] على

المحبوب ـ فهذه ظاهرة للعيان ـ وإنما اقصد افضاله العظيمة على العاشق نفسه . وفى هذا يقول يوريبيدس : « الحب هو الذى يعلم الشاعر فنه ، وإن لم تكن آلهة الشعر قد الهمت هذا الشاعر من قبل ! » . والحق ان الحب يشحذ ذكاء المرء ، ولو كان بليد العقل من قبل .. ويجعله ـ كما رأينا من قبل ـ مقداما ، ولو كان من قبل هيابا .. فكل عاشق يصبح كريما ، مستقيما ، شهما ، مهما تكن حاله من قبل . ثم .. الا يجعل الحب من الشرسين اناسا اكثر لطفا ولينا ودعة ؟.. وكما ان الدار تبدو بهيجة إذا كانت نار مدفأتها تشيع فيها دفئا فكذلك يبدو الإنسان مشرقا وضاء إذا عمر قلبه بنار الحب !

« واغرب الأمور جميعا ، ان العاشق يستصغر كل امرىء وكل شىء ، حتى القوانين والحكام والملوك ، فهو لا يخاف شيئا ، ولا يذهل لشىء ، ولا يهتم بشىء ، حتى إذا ضم محبوبه تداعى إقدامه ، وتكسرت غطرسته وعتوه !.. اليست هذه ظاهرة قدسية ، بحق زوس ؟.. اليست هذه ظاهرة من السماء ؟.. وما اكثر الناس الذين يرون شخصا ما فلا يتأثرون بجماله ، ولكن العاشق وحده هو الذى يتحول ـ عند رؤيته ـ من حال إلى حال .. لماذا ؟ هذا هو سلطان الحب كإله ورب !.. وكما ان آراء الناس قد تخلف ، ولكنهم يتحدون ويجمعون على اختيار شخص معين يسلمونه مقاليدهم ، ويضعون ثقتهم فيه ، كمشرع يضع لهم القوانين ، أو كحاكم يتولى أمورهم ، فكذلك نجد ان الشعراء وواضعى القوانين والفلاسفة يجمعون ـ على السواء ـ على اختيار

« الحب » من بين الآلهة ليؤثروه بالمديح ، وليجعلوه ملكا . وحاكما ، وديكتاتورا ، يستعين فى دولته بالصداقة والوفاق ، لا لأغلال والأصفاد ! » .

الحب شمس والجمال قمر عند المصريين

وتحول ابى إلى ناحية اخرى من الموضوع ، فقال : « والمصريون كالاغريق يعترفون بنوعين من الحب ، احدهما ارضى دنيوى ، والآخر سماوى راق .. يعترفون بالحب ربا ، وبالحب ملكا . ثم هم يعترفون بحب ثالث : « الشمس » . انهم ليبجلون « افروديت » ـ ربة الجمال ـ ويتمثلونها فى القمر والأرض . وكذلك نرى ان بين الشمس والأرض شبها عظيما . فليس كل منهما نارا ـ كما يخال البعض ـ وإنما هو إشعاع لدفء عظيم عذب .. فالاشعاع الصادر عن «الشمس» يمد الجسم الذى يصادفه بالحياة والضوء والنمو .. والاشعاع الصادر عن « الحب » يمد الروح بالنعم ذاتها .. وكما ان « الشمس » تبدو اكثر دفئا ، عندما تشق الضباب او الغيوم ، فكذلك « الحب » يكون أعذب واقوى إذا ما كان بعد غضب او غيرة .. واخيرا ، كما ان الجسم الذى لم يعتد الشمس ويتدرب على احتمالها لا يستطيع ان يطيقها بدون الم ، فكذلك الروح بالنسبة للحب !

« ومع ذلك ، فيبدو انهما يختلفان فى أمر واحد .. ذلك ان الشمس تكشف الجميل والقبيح لعينى الناظر . على السواء .. فى حين أن ضوء الحب لا ينير سوى كل جميل ، ويجذب إليه عينى العاشق دون اى شىء عداه !

« والذين يتمثلون افروديت فى القمر ، قد اصابوا . فالقمر أرضى وسماوى .. انه منطقة يمتزج فيها السرمدى بالفانى .. فهو ضعيف ومظلم — فى حد ذاته — إذا لم تسلط عليه الشمس اشعتها .. وكذلك افروديت بدون الحب !

« ومن ثم فان شبه القمر بافروديت ، والشمس بالحب . أقوى من شبههما بأية آلهة أخرى ، ولكن هذا الشبه ليس صفة مميزة فانت لا تتعرف على الجسد بما تتعرف به على الروح .. وكذلك تعرف الشمس بالمشاهدة . والحب بالادراك . ويستطيع المرء أن يقول — ايضا — ان عمل الشمس مضاد لعمل الحب . فالشمس تحول الفكر عن الأشياء التى تعرف بالإدراك . إلى الأشياء التى تعرف بالمشاهدة والحواس . فهى تفتننا ببهائها ووضحها وتغرينا بأن نبحث عن كل الأشياء — حتى عن الحقيقة — فى النطاق المحيط بها هى فحسب . أو بمعنى آخر . أن بهاء الشمس ينسينا الأمور التى يطبعها الحب على ذاكرتنا . تماما كما يحدث عندما يستيقظ المرء ، فاذا الضوء الباهر يطغى على كل الرؤى التى تبدت له فى الحلم ، فيبددها ويشتتها .. فكأن الشمس — عندما ننتقل من عالم آخر ، كعالم الحلم أو عالم الحب ، إلى العالم الذى تنيره — تشل ذاكرتنا ، وتبهر ذكاءنا . فاذا الاعجاب والسرور بها . ينسياننا العالم الذى كنا فيه ! » .

عندما تطفى الحب بالقوة !

« مع ذلك ، فالحق ان يقظة الروح على العكس من يقظة الجسد .. أن يقظة الروح تكون فى العالم الآخر — عالم

الأحلام — فاذا انتقلت إلى عالمنا الدنيوى باتت فى حالة حلم . فهى تذهل الشمس ، وتراها ابدع أحلامها ، كما تروى ان كل شىء فى العالم الذى تنيره جميل وغال ، ما لم تصادف « الحب » القدسى الطاهر ، فيكون طبيبها ومخلصها من هذا السحر الخادع ، إذ يرشدها إلى ميدان الحق والحقيقة ، حيث يستقر الجمال الوافر ، الخالص من كل شائبة . وكل الذين يتوقون إلى اعتناق هذا الجمال والاقتران به ، يقودهم الحب فى رفق وكرم . اما الذين يؤثرون الانحطاط ، فان الحب لا يقود روحهم إلى السمو مباشرة ، وإنما هو يقودها خلال الجسد ..

« وكم من اناس يحاولون ان يطفئوا الحب المشبوب عنوة من جراء عدم التكافؤ ، فلا يفوزون إلا بأن يملئوا انفسهم دخانا وارتباكا ، أو ان يندفعوا متخبطين فى الظلام إلى ملاذ غير مشروعة .. فى حين أن الذين يتوسلون بالحكمة والعقل، يقلمون السنة اللهب ، ويستبقون ما يكفى لإنارة الروح وتدفئتها .. وما احلاه من دفء تتفتح له مسام العاطفة والرضى !.. وبدلا من أن يحترق المرء بجسد المحبوب ، إذا به ينعم باجتلاء محاسنه ، فيتحد العاشقان قولا وفعلا ! » .

ومرة أخرى ، انتقل « بلوتارك » إلى ناحية جديدة من الموضوع فقال : « أتعرفون ظاهرة قوس قزح ؟.. ان بصرنا حين يلتقى بسحابة ندية ، رقيقة بعض الشىء ، فنرى انعكاس الشمس عليها ، مع اشعة الشمس التى تحيط بها ، يخيل إلينا ان القوس العديد الألوان ، فى جوف السحابة ذاتها .. وكذلك مفعول الحب بالنسبة للأرواح النبيلة التواقة للجمال .

فهو عند تجلى الجمال ، يحدث انعكاسا يسوق البال إلى تمثل الجمال الخارق للطبيعة ، والذى هـو علـوى ، وقدسى ، وحبيب ، ومبارك .. ولكن معظم الناس يسيرون وراء ذلك الطيف الوهمى للجمال ، الذى ينعكس على الصبية والنساء ، فاذا امسكو به لم يظفروا باكثر من لذة ممزوجة بالالم !

« وما ابعد العاشق الموهوب الحكيم عن هـذا .. فان انكسار الأشعة المنعكسة على الحبيب ، يسمو به إلى جمال قدسى ، لا يتجلى إلا للادراك ، ولا يكون جمال الجسد المادى بالنسبة إليه سوى اداة للتذكرة والتامل .. فهو يحتضن هذا الجمال ، ولكن حرارة اللذة العقلية والنفسية ، تطغى عنده على متعة الاتصال. ذلك لأن العاشق الصادق فى حبه يكتسب — حين يتصل بالجمال فى حدود ما هو مشروع له — اجنحة تسمو به عن نطاق المـادة ، فينصرف إلى الملاذ الغامضة التى ينعم بها عليه الهه ، حتى يبلغ مروج القمر وافروديت (اى حتى يصل إلى لب الجمال) فيستسلم لنعاس ، يولد بعده خلقـا جديدا ! » .

الحب الصادق لا يعترف بجنس المحبوب

وهنا قطع ابى حديثه ، ثم عاد يستأنفه : « ولكن هـذا خارج نطاق جدالنـا الراهن .. ان الحب كغيره من الآلهة ، يرضى عندما يحترمه الجنس البشرى ، ويستاء عندما يجحده البشر . وما أعظم كرمه مع من يستقبلونه بما يليق به ، وما اشد نقمته على من يستهينون به ، وما أسرع عقابه لهم » .

ومرة اخرى ، تحول يقول : « ثم ان الأسباب التى يعزون إليها منشأ الحب ، لا تقتصر على جنس دون آخر ، وإنما هى مشاعة بين الجنسين . على ان العاشق الذى يحب الجمال حبا صادقا ساميا ، يوجه حبه نحو الجمال الحقيقى ، دون ان يرتبط بالعلامات المميزة لجنس عن آخر ، فهو لايتحيز لجنس دون جنس .. أفيتصور الإنسـان ان ثمة فارقا بين الحب السامى للنساء ، والحب السامى للرجال ، يشبه ذلك الفارق الملحوظ بين ثياب كل من الفريقين ؟.. لقد قيل ان الجمال هو زهرة الفضيلة ، فمن السخف ان يقال ان هـذه الزهـرة لا يمكن أن تتفتح فى النساء ، وان النساء لا يظهرن قط اى ميل طبيعى للفضيلة .. ولقد قال اخيلوس : « استطيع ان اعرف من بريق عين المراة ما إذا كانت قد تذوقت الرجال ! » . فهل من المعقول ان تتجلى للعين امارات الفساد الذى يلحق المراة ، ولا تتجلى على جمالها اشعاعات الحياء والحشمة والعفة ؟

اتصال الأرواح دون الابدان

« ولقد وصف زوكسيبوس الحب بأنه شهوة جامحة تجرف الروح نحو الفجور !.. وما اعتقد انه كان يؤمن بذلك ، ولكنه كان يردد ما طالمـا سمعه من رجال موغرين . محنقين ، منهم من تزوج من امراة تعسة ، أوتيت شـيئا من المـال ، ثم طوح بها وبمالها فى متاعب الاعباء المنزلية ، وفى كآبة التدبير المنزلى ، ومن ثم فهى تتململ تحت النـير — فى كل يـوم — ولا تنفك تشاكسه وتشاجره .. ومنهم رجال يشتهون إنجاب الأطفال ، أكثر مما يشتهون النساء كزوجات ورفيقـات فى

الحياة ، فهم يلقحون اية أجساد يقدر لهم أن يحصلوا عليها ، حتى إذا جنوا الحصاد أولادا ، ودعوا الزواج ، أو ابقوا عليه دون أن يحفلوا بمطارحة شريكاتهم الحب !

« أما الرابطة التى تأتى عن إيحاء الحب وإرادته ، فانها لا تميز بين جنس وآخر ، ولا بين رجل وامراة ، وإنما هما — فى ظلالها — صديقان يتشاطران كل شىء .. وهذا لا ينطبق إلا على العاشقين اللذين تتلاصق روحاهما حتى تندمجا فى واحدة ، بينما يظل جسداهما منفصلين ، متفرقين .

« وفيما يتعلق بالأخلاص المتبادل ، الذى لا غنى عنه للزواج ، نجد أن الوفاء الذى تفرضه القوانين ، أثقل على النفس من الولاء التطوعى ، الاختيارى . فان الأول يكون مفروضا بحكم الخوف والاستحياء من العار ، ولابد له من أعنة كثيرة تكبحه . ولكن الحب يمتلك سيطرة من النفس على النفس ، وإخلاصا ، ويقينا . فاذا ما صادف نفسا متقلبة ، عزلها عن العشاق ، وكسر نزقها ، وحطم غرورها الذى يسوق إلى القحة والفجور .. ثم بث بدلا من هذه الصفات تواضعا واحتشاما وصمتا وسكينة ، وخلع على المحب رواء وقصر اهتمامه على حب واحد . ولقد سمعتم جميعا عن « لاييس » التى هام بها كل رجال الاغريق ، حتى إذا مسها الحب ووجهها شطر « هيبولوخوس » التسالى ، فرت — فى الخفاء — من عشاقها العديدين ، وآثرت حياة وادعة محتشمة . ولكن نساء (تساليا) كن يحسدنها ويبغضنها ، فسقنها إلى احد معابد « افروديت » ، ورجمنها بالحجارة حتى ماتت !

« ولكم سمعنا عن خادمات وضيعات الأصل أبين أن يكن خليلات لمخدوميهن ، وعن افراد عاديين عافوا احضان ملكات ، عندما سيطر « الحب » على أرواحهم .. فان الحب إذا استولى على إنسان ، حرره من كل السادة والحكام ، ليصبح هو سيده وإلهه الأوحد . والزوجة التى تصدق فى حبها لزوجها ، تؤثر عناق الدب أو الثعبان ، على أن تسمح لأى رجل غريب بأن يمسها !

« وبعد هذا كله ، كيف نتساهل مع أولئك الذين يرمون « افروديت » بكل نقيصة ، ويزعمون أن الاتحاد الذى يقوم بين الرجل والمراة ، على أساس من الحب وبمعونته ، يحول دون توثيق الصداقة بين الرجل وبنى جنسه ؟.. كل ما هنالك هو أن بعض الرجال يفتر ويضل طريق الصداقة الصحيحة . فيتردى فى حمأة اللواطة .. وليس بين طبقات الرجال من هم أزرى وابغض من هؤلاء !.. وان الذكر الذى يسمح لنفسه بأن يكون خليلا لرجل ، ليسف فى التردى ، حتى أنه ليقتل عاشقه إذا رآه ينصرف إلى سواه !

الحب عند المراة المتزوجة

« أما بالنسبة للمراة المتزوجة ، فان التآلف بين الجسدين — جسدها وجسد زوجها المحبوب — يخلق بذور الصداقة ، إذ أنهما بهذا التآلف يتشاطران اسرارا عظيمة ، قدسية . أن لذة البدن قصيرة الأجل ، ولكنها تنمى — يوما بعد يوم — التعاطف والانسجام المتبادلين ، وتخلق الثقة والطمأنينة .

« وهل نحن بحاجة إلى ان نتحدث عن سعة أفق المرأة التى تحب ، وعن يقينها ، وإنصافها ، وشجاعتهـا ، ومناعتها ، وعظمة روحها ؟.. وهل بعد هذا يقال انها غير اهل لصداقة الرجل ؟.. إن المرأة تحب أطفالها ، وتحب زوجها ، فهى غنية العاطفة ، وهى كالأرض الخصبة تتلقى بذور الصداقة ، فترعاها فى بهـاء ولطف حتى تنبت . والمـرأة الفاضـلة ، العفيفة ، لا تتورع عن أن تضحى فى سبيل الحب ، فلا يلبث الحب أن يؤثرها بكل فتنة أنثوية ، حتى لا يزوغ بصر زوجها إلى امرأة غيرها !

« ولقد تربك الدروس الأولى فى فلسفة الحب عقل الشاب ، ولكنه لا يلبث أن يستوعبها . فالحب اشبه بمزج سائلين ، فان المزيج يبدو – فى بادىء الأمر – عكرا ، فوارا ، ثم لا يلبث أن يهدأ ويكتسب صفاء .. واتحاد العاشقين أشبه باندماج فلذين ، او معدنين متوافقين . اما اتحاد اى شخصين بدون حب ، فانه يكون موزعا بين الجاذبيات والمنفردات ، فهـو لا يهدأ ولا يستقر ولا ينتج وحدة كاملة خالصة ، كتلك التى تنشأ إذا ما كان الحب مسيطرا على الزوجين ! » .

وبهذا اختتم « بلوتارك » حديثه ، فانفض المجلس .

عزيزى القارىء :

كل إنسان ولد وفيـــه قوة تؤلف جزءا من عقله ، ولك أن تسميها « قوة الخيال » ، أو « القريحة » ، أو « الادراك » ، أو « قوة التصور » ..

على اننى آثرت هنا ان اطلق عليها الاسم الأول .. ذلك لأننا اعتدنا — فى الحياة العادية — أن نقصر الخيال على كل شىء تتصوره عقولنا دون ان يكون له وجود، واعتدنا ان نقرن الكلمة بالشاعرية والجو الحالم .. لهـــذا أردت أن أقر فى ذهنك ان « الخيال » اوسع من هذا واعم .. فالتفكير فى سبيل حل مسألة حسابية او هندسية ، لابد له من « خيــال » .. والتفكير فى مشكلة من مشـــكلات الحيـــاة ، لا يستغنى عن « الخيال » .. وما المخترعات والمبتكرات إلا نتائج تفكير علمى لعب فيه الخيال دورا كبيرا .. ولولا أن الإنسان اعتاد — منذ اقدم العصور — ان يتمثل فى خياله اختراق الفضاء المحيط بالأرض ، والانطلاق إلى الكواكب — وإلى القمر بالذات — ما نعمنا فى عصرنا الحالى بالصواريخ التى شقت الفضـــاء فعلا ، وبلغ بعضها القمر ، كما فعـــل الصاروخان الروسى والأمريكى اللذان حملا اعلام الاتحاد السوفيتى والولايـــات المتحدة إلى القمر ..

ومؤلف هـــذا الكتـــاب : « اليكس اوزبورن » ، يذهب — نتيجة لدراسته وابحاثه — إلى ان حياتنا الحديثة تساعد على ضمور الخيال واضمحلاله ، فى حين ان « الخيال » هو النور الذى يستطيع أن يحيل حياتنا إلى بهجة ومتعة ..

إننى اقدم لك — فى الصفحات التالية — ما ســوف يقنعك باهمية الخيال ، والخيال الخلاق بالذات ، فى حياتك .. وبقيمة استغلالك هذه الهبة الطبيعية — أو هذا الجزء من تكوينك وكيانك — وتمرينه .. وآمل أن أستطيع أن اقدم لك — فى عدد تال — خير الوسائل والطرق التى توصل إليها العلماء لشحذ القريحة واستغلال الخيال ..

اضمحلال الخيال أشبه بانهيار الجسد

من الأقوال التى أذكرها لوالت ديزنى : « كل إنســان — تقريبا — يكون واسع الخيال فى طفولته ، ولكننا نفقد قوة خيالنا رويدا ، كلما تقدمت بنا السن .. واخفاقنا فى توجيه خيالنا ، لا يقل اثرا عن انهيار قوانا الجسدية نتيجة إهمال الرياضة والمران ! » .

بل إن اضمحلال الخيال قد يكون أسوا اثرا من اضمحلال القوى الجسدية ، إذ أن التغلب على العقبات التى تلقيهـــا الشيخوخة فى دروب حياتنـــا ، يتطلب اكثر من القدرة على تمحيص الأمور والبت فيها .. يتطلب خيالا مدربا ، مرنا ، نحتفظ بنشاطه عن طريق المران الخلاق خلال مراحل الحياة .. وقد كرس عالم تربوى كبير — هو البروفيسور « هيوز ميرنز » — جهوده فى الفتـــرة بين ســنتى ١٩٢٦ و ١٩٤٦ لدراسة وتعلم « المقدرة الخلاقة » .. مقدرة الخيـــال على الخلق . وقد لخص ثمرة جهوده كرئيس لقسم التربية الخلاقة بجامعة نيويورك فى عبارات قلائل : « الملكة (بفتح اللام) الخلاقة بمثابة قلب آخر لنا . وما استطاع امرؤ أن يعرف

مصدر قوتها ، ولكن احدا لا يشك فى ان هـــذا المصدر كامن
فينا . وهذه الملكة كفيلة بأن نبقى على حيويتنا ، إذا اتحنا لها
فرصة خدمتنا . اما إذا تركناها تخمد ، فكانما اخمدنا الحياة
فينا .. فهى فى حاجـــة إلى مران مستمر يقويهـــا فتزداد
معاونتها لنـــا فى التغلب على حاجات معيشـــتنا » . على أن
« البروفيسور ميرنز » لم يشق بكلامه وتجاربه سوى درب
واحد ، فى عالم كان التربيون وعلماء النفس يتجاهلونه ..

مطالب الحياة تخنق خيالنا

ولو ان كل امرىء منا عـــرف عقله كما ينبغى ، لتفتحت
امامه ابواب معرفة تفوق كل ما عرف حتى اليوم .. ولكنـــا
لا نزال نتطلع — حين نتأمل عملية التفكير — إلى ظلام لا تبدده
سوى ومضات واهنة ، سريعة ..

ولقوانا العقلية اربع شعب ، بوجه عام :
(أولا) قوة الاستيعاب : المقدرة على الملاحظة والاهتمام ..
(ثانيا) قوة الاحتفاظ : اى ادخار ما نستوعبه ، ونذكره ..
(ثالثا) قوة التمحيص : المقدرة على التحليل والحكم ..
(رابعا) قوة الخلق : المقدرة على التامل ، والنفاذ بالبصيرة
إلى ما وراء المظاهر ، وتكوين الأفكار والآراء ..

فالعقل يعمل — فى الاستيعاب والاحتفاظ — كالأسفنج ،
ثم نبدا عملية التفكير .. والعقل المفكر يجد ان البت والحكم
اسهل عليه من الخلق . والتعليم يسعى إلى ان ينمى فينـــا
موهبة النقد والتمحيص ، بينما تربى التجارب فينا موهبـــة
الحكم على الأمور . فانت — من الصباح إلى المساء — تنهمك
فى إصدار أحكام ، والبت فى مسائل : « هل اغادر الفراش ،

أو استلقى فترة أخرى ؟ » .. « هل اعمل هذا ، او اعمل
ذاك ؟ » .. ومن الغريب حقا ، اننا كلما ازددنا ممارســـة
لموهبة الحكم ، قل تدريبنا لخيالنا !..

وبالاسراف فى استخدام مقدرتنـــا على البت فى الأمور ،
نعمل على شل مقدرتنا الخلاقة .

الخيال أنواع .. أرقاها « الخيال الخلاق »

و « الخيال » تعبير يشمل نطاقا واسعا ، غير واضـــح
المعالم ولا الحدود ، حتى لقد وصفه أحد العلماء بأنه « مجال
يخشى علماء النفس ان يطئوه » .. ذلك لأن الخيال يتخذ كثيرا
من الأشكال ، بعضها جامح ، وبعضها عديم النفع وقد يكون
ضارا ، وبعضها خلاق .. فمن الجموح : التهوس ، والخبل ،
والتعصب ومختلف انواع الشذوذ العقلى .. ومن الأشكال
عديمة الجدوى : احلام اليقظة ، وأحـــلام النـــوم ، وهى قد
تنقلب إلى ضارة كما فى العقد النفسية والضجر ، إذ تسعى
الانفعالات إلى توجيه الخيال إلى العمل ضد صاحبه .. ولكن
فى وسعنا أن نتغلب على هذه الأشكال بالتفكير الخلاق .

وهنـــاك أنـــواع تصورية من الخيـــال ، تمنحنـــا قدرة
« التمثل » ، اى ان نرى بعين العقل ما لم نبصره فى الحياة
الواقعية قط .. كما ان هناك خيالا مبتكرا ، يمكننـــا من أن
نبصر جبلا — مثلا — فى منطقة لا توجد بهـــا جبال البتة ..
ثم هناك الخيال « المسترجع » الذى يمكننـــا من استرجاع
منظر من المـــاضى البعيد ، او اصداء كلام مضى عليه زمن
طويل ، فهو يضيف البصر والسمع إلى الذاكرة !..

ومن أنواع الخيال التصويرى « التمثل المجسم » .. أن ابنتى تتأمل « باترون » ثوب يروق لها ، فسرعان ما تتراءى لها صورتها فى مرآة وقد ارتدت هذا الثوب !

والخيال « التقمصى » أشبه بجسر ينتقل عليه المرء من شخصيته الراهنة إلى شخصية اخرى .. كما يحدث للفتاة « الكومبارس » ، حين تتصور نفسها بطلة تؤدى دورا امام « الفتى الأول » وتستأثر بإعجابه وهيامه ..

ويبقى بعد ذلك الخيال « التوقعى » ، وهو كثيرا ما يتجه بنا إلى التشاؤم أو التوجس ، فيسمم عقولنا . ولكنا حين نستطيع أن نتوقع الخير ، ونحن نعد انفسنا لأسوأ الاحتمالات ، إنما نستغل الخيال التوقعى استغلالا خلاقا .

الطبيعة تزودنا بمخ أكبر مما نستخدم

وارفع أنواع الخيال طرا ، هو « الخيال الخلاق » ، فعن طريقه نشق خلال الحقائق القديمة ، سبيلا جديدة ، ونتغلغل إلى ما وراء الحقائق القائمة ، لنصل إلى حقائق لم تعرف بعد . ومن ثم فنحن نستخدم الخيال هنا كالمصباح الكشاف ، نسلطه هنا وهناك ، إلى المعلوم وغير المعلوم ، لكى نكتشف جديدا .

ومن الممكن — كذلك — استخدام الخيال الخلاق كأداة للخلط والمزج بين عناصر معلومة ، لنكون منها شيئا غير معلوم ، كفكرة جديدة أو راى جديد .. وبهذا نبتكر او نخترع . وقد كان بعض اللغويين — فى الماضى — يصفون « الخيال » بأنه : « الإرادة التى تسلط على مواد الذاكرة »

.. ولا جدال هناك فى ان المقصود بهذا التعريف هو « الخيال الخلاق » .

ومن الناحية العلمية ، تزود الطبيعة الإنسان بمخ اكبر مما يستخدمه فعلا . ويثبت ذلك ان معظم مراكز المخ — كتلك التى تمكننا من الكلام أو القراءة أو السمع — توجد مزدوجة ، بحيث يظل واحدا من كل منها معطلا إلى أن يصاب المركز المقابل له بضرر أو تلف ، ومن ثم نبدأ فى تدريب واستخدام المركز الذى كان بلا عمل .. وليس أدل على هذا من أن « لويس باستير » — العالم الخالد الذكر — أصيب بشلل اتلف نصف مخه .. ومع ذلك ، فان فريقا من أعظم اكتشافاته العلمية تم بعد اصابته بالشلل .. كذلك أجرى اختبارا للذكاء ، لرجل من اهالى نيويورك كان الثلث الأمامى من مخه قد أزيل ، فكانت النتيجة أن وجد أن ذكاءه مرتفع بدرجة كبيرة .

« برنادو شو » كان يفكر مرة كل أسبوع

ويقول « البروفيسور » وليم جيمس — من أساتذة جامعة هارفارد — بهذا الصدد : « اننا انصاف يقظى ، إذا قورن بين ما نحن عليه وما ينبغى أن نكون عليه . فنحن لا نستغل سوى جزء صغير من مواردنا العقلية » .. وقد صاغ « جورج برناردو شو » هذه الحقيقة بأسلوب ادبى مسرحى ، حين قال : « قلة أولئك الذين يفكرون اكثر من مرتين او ثلاث فى السنة . وقد استطعت أن اكتسب شهرة دولية لأننى افكر مرة او اثنتين فى الأسبوع » .

والمقصود بهذا التفكير : التمحيص ، والتحليل ، والمقارنة ، واستخلاص النتائج .. اى الأحكام [illegible] للتفكير

الخلاق ، فنحن اشد تقصيرا فى استعمال عقولنا فى مجاله .

ويروى — فى هذا الصدد — عن « جيمس وولف » ، الذى كان من ألمع مصممى الإعلانات فى امريكا ، انه استخلص من خبرته الطويلة ان « الخيال ليس هبة نادرة ، وإنما هو عادة تنشأ عن إقبالنا على استخدام عقولنا .. وقد يقول معترض انه لا يستطيع ابتكار الأفكار الجديدة ، ولكنى أسأله : إلى اى مدى تحاول ؟.. هل بذلت حقا جهدا صادقا ، لزمن طويل ، لتدريب عقلك على التفكير الخلاق ؟ » .

وما اكثر من ينظرون منا إلى « الخيال » على انه شىء يسير من تلقاء نفسه ، كالمعدة او اى عضو من أعضاء الجسم يعمل تلقائيا تحت ارشاد من جهاز عصبى منسجم !.. ومن ثم ، فما لم ندفع خيالنا إلى العمل ، فانه لا يلبث ان يخمل ويتضاءل .

وينعقد الاجماع على أن الخيال هو الجذوة المقدسة التى تجعل الإنسان « سيد الحيوان » . فالحضارة من نتاج الخيال الخلاق .. كل المخترعات ، وكل الأفكار والآراء والمبادىء التى تدفع الإنسان فى طريق التقدم ، من ثمار هذا الخيال .

الخيال القوى يخلق الفرص لصاحبه

ولقد قام الدكتور « س . ل . ويلز » بدراسة تحت إشراف الجماعة الأمريكية لعلم النفس التطبيقى والمهنى ، اختبر فيها فريقا من الموظفين ذوى المرتبات العالية ، وفريقا مساويا من ذوى المرتبات المتوسطة . فتبين ان اولئك الذين بلغوا ارفع المراتب كانوا اكثر من سواهم مقدرة على التفكير فيما

يفعلون ، وكيف ينبغى ان يفعلوه .. فالخيال القوى يهيىء لصاحبه الفرص .

وإذا تحولنا إلى شؤوننا الخاصة ، وجدنا انه ما من شىء يملأ حياتنا بهجة وإشراقا اكثر من خيال مدرب ، وموجه خير توجيه . فان مجرد استخدام هذا الخيال يعتبر متعة ومبعثا للرضى . ومع ذلك ، فان علماء النفس والتربية لم يلقوا اضواء كافية على ملكة التفكير الخلاق .

وقد لا يكترث كثيرون منا لأن يعلموا أن الخيال هو الضوء الذى ينير لنا دنيانا ، وان الأفكار الخلاقة هى الدرجات التى نصعد عليها إلى المجد .. ولكن الذى يجب ان نكترث له جميعا ، هو اننا نستطيع ان نحصل من دنيانا على نصيب أوفر من نصيبنا الحالى ، إذا نحن استخدمنا خيالنا استخداما فعالا .

نحن أموات جزئيا .. ما لم نستغل عقولنا

والخيال — فوق كل هذا — من دعامات الحياة المستقرة الهانئة . فان ابحاث معهد الهندسة الإنسانية — فى امريكا — تدل على ان معظم القلق والتذمر فى حياتنا ، ينشأ عن عدم استخدامنا لملكاتنا ومقدراتنا . فان مواهبنا تصبو دائما إلى منفذ لترى النور ، فضلا عن أنها تتوق دائما إلى النمو والتطور . فاذا نحن سددنا عليها المنافذ ، وضيقنا عليها مجال النمو والتطور ، انقلبت إلى مصدر للضيق ، والقلق ، وعدم الرضى ..

ويتناول البروفيسور « د. ك. واينبرينر » هذه الفلسفة بالايضاح ، إذ يقول : « اننا أموات جزئيا ، لأننا لا نستخدم

كل مقدراتنا . واوفرنا حياة هو اكثرنا إنتاجا خلاقا . فالشخص الذى اوتى خيالا خلاقا ، يستطيع ان يكون حرا ولو كان رهين « زنزانة » ، فى سجن .. اما الذى لم يؤت خيالا خلاقا ، فمثله كمثل حيوان يسير فى عالم مجهول ! » .

ولقد انعمت الطبيعة على كل منا بدرجة معينة من الخيال .. وهذه الموهبة لا تتوقف على التعليم كثيرا ، فكم راينا من فنانين برعوا فى الفنون دون أن يكونوا قد درسوها دراسة وافية كافية .. وكم راينا من اناس نجحوا فى ميدان الأعمال دون أن يكونوا قد الموا بنصيب يذكر من العلم .

الثور الذى يسبق القطار !

ومن الطرائف الفكهة التى يحسن إيرادها هنا ، للتخفيف من وطأة الحديث العلمى ، إن احد أصحاب مزارع تربية الماشية فى ولاية (تكساس) ، كان يقف يوما فى إحدى النوافذ ، وإذا به يرى سيارة مقبلة ، لم يكد يتعرف على من كان يستقلها حتى اندفع إلى داخل داره ، وقال لخادمه : « ان القادم من ذوى المكانة فى (شيكاجو) .. وقد حدث أن ضمنى وإياه مجلس شراب ، فرحت ازهو امامه — فى نشوة الخمر — بأن لدى ثورا اعتاد ان يسابق القطار كلما مر بحذاء المزرعة فى كل صباح ، وان يسبقه فعلا .. وقد رغب الرجل فى أن يرى هذا الثور العجيب، وانت تعرف ان لا وجود له فى الواقع .. لذلك أعهد إليك باستقبال الزائر ، فان سألك عنى ، فقل اننى سافرت !» .

وبينما تسلل السيدمن الباب الخلفى ، سعى الخادم إلى الباب الأمامى ، واستقبل الضيف مرحبا .. حتى إذا سأله

هذا عن مخدومه ، قال : « لقد سافر إلى (نيو اورليانز) ، ومنها إلى (اتلانتا) و (جاكسونفيل) ، ثم إلى (نيويورك) ، وإلى (تورنتو) ، وإلى (كليفلاند) ، و (سنسيناتى) فى طريقه إلى (شيكاجو) .. ومن هناك ، سيقصد إلى (سانت لويس)، ثم إلى (دنيفر) ، فالى (سيتل) .. ثم يعود ، معرجا فى طريقه على هوليوود ! » .

— وى !.. يا لها من رحلة !.. وكم ينقضى من الزمن قبل ان يعود ؟

وإذ اجاب الخادم : «يومان» ، هتف الضيف : «يومان» ؟!

.. كيف يتسنى له ذلك ؟.. هل يستقل طائرة نفاثة خاصة ؟ » .. واجاب الخادم بهدوء : « لا يا سيدى .. إنه يتمطى ذلك الثور السريع الذى يمتلكه ! » .

النبوغ ليس شرطا للخيال الخلاق

وإذا كانت الملكة الخلاقة تختلف من فرد إلى آخر ، فان الدافع المحرك لها يكون أكثر اختلافا وتباينا .. وعلى هدى هذه الحقيقة ، يقسم التربويون الأطفال إلى ثلاثة أنواع :

(١) المنساقون الذين يريدون من يملى عليهم ما يفكرون فيه ، ثم يتلونه عليه بعد ان يستوعبوه ..

(٢) السائرون فى الركب : الذين يحاولون ان يتبينوا ما يريده المدرس ، ثم يبذلون من الجهد ما يكفى لأن ينالوا الدرجة التى تكفل لهم النجاح .. وحسب !

(٣) حلالو المعضلات : الذين يحبون الأفكار الجديدة ، ويحبون ان ينشروا أفكارهم فى الصف الدراسى ، وان يتلقوا عنها الجزاء المناسب .

وليست بنا حاجة لأن نكون موهوبين بنعمة النبوغ الفذ ، حتى نصبح من « حلالى المعضلات » .. كما أن من الممكن أن نحرك مقدرتنا على التفكير الخلاق ، بطريقة لا تكبد كثيرا من العناء ..

والواقع أن الخيال أشبه بجناحى النعامة ، فهو يمكننا من الجرى السريع ، وإن لم يمكننا من الطيران !.. ولكن كثيرين منا لا يمشون ، فما بالك بالجرى ؟!.. انهم اما أن يقفوا جامدين — فى مضمار الفكر الخلاق — واما أن يتقهقروا من طفولة نشيطة الخيال ، إلى يفاع مجدب !

عقول النساء .. الغاز غامضة !

ولقد قال جوستاف فلوبير — مؤلف « مدام بوفارى » — يوما : « ان الموهبة رهن بتصرفاتنا . فاما ان نهمل استعمالها فتضمحل ، وإما ان ننميها . بممارسة الخيال الخلاق .. بحل المسائل والمشكلات .. باستخدام فراغنا بطرق تروض خيالنا » ..

ويرى بعض علماء النفس ان المراة اقل من الرجل فى « القوة البدنية والخيال » . وانى لأشك فى هذا ، إذ ثبت ان الاختبارات العلمية تدل على ان المراة لا تقل خيالا عن الرجل ، إن لم تفقه أحيانا .. وقد أتيح لى أن أدرس خيال المراة وتفكيرها طويلا ، لا سيما وأن لى زوجة وأربع بنات وسكرتيرة .. ومع ذلك ، فانى اعترف بأنهن لا يزلن غامضات بالنسبة لدراستى !

واذكر اننى قلت لزوجتى ، عندما ولدت ابنتنا الأولى : « اننى بالماجستيراه التى حصلت عليها فى علم النفس ،

ساستطيع أن أوجهها بطرف أصبعى ! » .. ولكم كنت على خطأ ، كما تبينت عندما بلغت ابنتى العاشرة من عمرها . فقد حدث ان وجهت إليها — ذات أمسية — لوما رقيقا ، فاذا بها تدق الأرض بقدمها ، وتصرخ : « اننى اكرهك ! » ..

وفى اقصى كرم وتلطف — اصطنعتهما لأظهر مدى قوة ارادتى — سالتها عن سر كراهيتها المزعومة ، فاذا بها تجيب :

« لمجرد اننى اكرهك ! » .

ولم تتحول عن هذا الجواب فى كل مرة وجهت إليها السؤال .. بل إنها كانت تزداد انفعالا كلما ازددت انا رقة وتلطفا ، حتى انتهى بها الأمر إلى أن ارتمت على الأرض ، وراحت تدقها بيديها وقدميها ، وانا لا اكف عن سؤالها : « لماذا تكرهيننى ؟ » .. وفى النهاية ، قالت بصوت خافت : « إنما اكرهك لأنك .. شديد اللطف ! » .

اعمال البيت تشحذ خيال المراة

وعلى الرغم من عجزى عن الإلمام بعقل المراة ، إلا أن من حقى ان اقول اننا — معشر الرجال — خليقون بأن نعترف باننا اقل منهن خيالا . وكل ما نحتاج إليه لتثبت من هذا ، هو ان نتأمل الأعمال اليومية للنساء ، فسوف نرى أن ربات البيوت يمارسون الخيال ويستغللنه اكثر مما يفعل معظم الأزواج . ذلك لأن عمل الرجل غالبا ما يكون « روتينيا » ، اما المراة ، فلا تخضع لقواعد تقيدها ، فى عملها فى البيت من الصباح حتى المساء .. فتصور مدى التفكير والخيال اللذين تستخدمهما فى تدبير مشترياتها ، وفى تصميم الأطعمة ، وفى

تنسيق البيت ، وفى حمل الأطفال على ان يفعلوا هذا ويكفوا عن ذلك .

وكم من أزواج تبينوا مدى ما لزوجاتهم من خيال خلاق ، فركنوا إليهن ، واستعانوا بهن .. وقصة «كورى» و « مدام كورى » اقرب مثال لذلك . فقد كانا شريكين فى البحوث العلمية ، كما كانا شريكين فى الحياة الزوجية .

اثر البيئة الحديثة على العقل

وهناك حقيقة هامة ، فى مجال الحديث عن تدريب الخيال الخلاق وتمرينه .. تلك هى ان نموه قد يتعطل بسبب الجو الذى نعيش فيه . فالحاجة هى التى دعت أسلافنا إلى أن يبتكروا ويخترعوا ما يخفف عنهم عناء الحياة والعمل . وكان لكى يصونوا عليهم أن يقدحوا فكرهم معظم الوقت ، حياتهم . أما حياتنا الراهنة ــ وهى ناعمة نسبيا ــ فمن شأنها ان تخدر روحنا الخلاقة ، وان تبث الخمول فى تفكيرنا الخلاق !

ذلك لأن الإنسان اصبح ــ فى العصر الحديث ــ اكثر امنا وطمأنينة ، بفضل ما اصبحت تكفله له الدولة من امن ، ومن معاش ، ومن تأمينات تقيه شر البطالة والعوز .. كذلك أصبح الإنسان اقل جهدا فى العمل ، بفضل المخترعات الحديثة .. حتى العمليات الحسابية ــ بالنسبة لكاتب الحسابات ــ اصبحت الآلات تقوم عنه بها .. الأمر الذى يشجعه على ان لا يشحذ عقله ، أو يجهد فكره .

لقد كان شعار الحياة عند أجدادنا : « اعمل وإلا مت ! » .. اما الآن ، فاصبح إنسان العصر الحديث يعتمد على

الدولة ، ويطمئن إلى انها لن تتخلى عنه ، أو تترك أسرته للجوع والمرض والتشرد .. فضلا عن انها تدافع عنه وعن أسرته ضد كل ما يهدد أمنهم وسلامتهم .. لهذا فقد أصبح الشعار اليوم : « لماذا أحاول ؟.. ان الدولة ترعانى ، وتكفل لى العمل الذى أرتزق منه .. فلماذا ارهق عقلى فى الابتكار ؟ » .

حياة المدينة تخدر الفكر والخيال

وهكذا نرى ــ من وجهة النظر إلى استغلال المرء لمواهبه ــ ان الشعور بالأمن والطمأنينة ، كثيرا ما يكون عائقا لنمو خياله الخلاق .. فعدم الاطمئنان هو أعظم قوة محركة فى العالم.

ولقد كانت روح الجماعة محفزة فى الماضى على التنافس ، ولكنها اليوم تزداد خمولا .. كذلك أصبح إسراف الدولة فى فرض الضرائب من العوامل التى تقعد بالكثيرين ــ ممن لم يؤتوا التوجيه السليم ــ عن الاجتهاد والابتكار ..

وحياة المدن من العوامل التى تخدر قوى الفكر والخيال ، اللهم إلا بالنسبة لبعض اهل الفن ورجال العلم واصحاب الأعمال .. اما حياة الريف ، فان الخشونة التى تتسم بها تتيح مجالا لممارسة الخيال الخلاق .

وقد قامت لجنة تابعة لمؤسسة كارينجى ، بدراسة استغرقت خمس سنوات، لتحديد الأصول الجغرافية والنشأة الاقتصادية لعدد ممن برزوا فى ميدان البحوث العلمية .. فانتهت إلى ان « البحث الخلاق يقوى فى العقول التى لا تزال مرتبطة بالأوساط البدائية ، ولو بالذكريات .. وفى

العقول التى نشات — من الناحية الاقتصادية — فى الصفوف الدنيا من الطبقة المتوسطة » .

كذلك تؤثر الحرب ، والخوف من الحرب ، على القريحة الخلاقة فتضعفها .. بل إن المجندين يدربون — فى الجيوش — على أن يفعلوا ما يؤمرون ، وليس لهم ان يفكروا .. ثم ان الحرب تولد عقدا مناوئة للمقدرة الخلاقة .. كذلك الشعور الذى يوحى للمرء : « ما الفائدة ؟ » .. على أن هناك استثناء واحدا يتمثل فى مجال البحوث التى يتطلبها المجهود الحربى ..

* * *

وبعد ؟!..

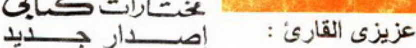
الآن وقد أدركت قيمة التفكير والخيال الخلاقين ، ابدا من هذه اللحظة .. أيقظ عقلك ، وأيقظ خيالك ، حتى تنعم بالحياة وتشعر ببهجتها !

رقم الايداع : ٤٣٧٩
٦ – ٠٨٠ – ١٦٢ – ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة







عزيزى القارئ :

فى الكتاب السابق (رقم ٣٠ من الاصدار الجديد لسلاسل « كتابى » ومطبوعاته ومختاراته ورواياته) ، قدمت لك الكتاب الثالث من مجموعة كتب علم النفس العملى المبسط - بعد الكتابين الأولين من المجموعة ، وكانا برقمى ٢٦ و ٢٧

واليوم أقدم لك فى هذا الكتاب الذى بين يديك الكتاب الرابع من هذه المجموعة ، ويتضمن المادة التى جمعها محررو مجلة فورتشن FORTUNE الأمريكية ، عن حياة وكفاح مائة من كبار رجال المال والصناعة فى أميركا ، ليرشدوك إلى طرق النجاح والثراء . وقد اختار محررو المجلة المذكورة عنوانا له : (كيف تحصل على الثروة فى أقصر وقت) !.. وهو يروى لك عدة قصص واقعية منها ، قصة العصامى « ريتشارد جيمس » ابن أحد النجارين فى ولاية (فيلادلفيا) ، الذى اخترع « بكرة السلك الزنبركى » التى بدأها فى الأصل كلعبة من لعب الأطفال ، لكنه طورها حتى استطاع أن يبيع منها فى عام ١٩٥٤ ما قيمته نصف مليون دولار .. وتلى هذه القصة قصة كفاح عصامى آخر هو « آيك دفى » الذى أصبح فى يوليو عام ١٩٥١ رئيسا لمجلس إدارة الشركة المشرفة على الخط الحديدى الذى يخترق ولاية (انديانا) الأمريكية ، وبعد أن كانت الشركة تحقق خسائر تبلغ ألف دولار فى الأسبوع الواحد ، حولها إلى شركة تربح مئات الألوف من الدولارات ، أو بالتحديد ٧٠ ألف دولار فى عام ١٩٥٣..!



وعلى هذا النحو تقرأ فى هذا الكتاب قصة كفاح ونجاح العشرات من العصاميين الذين جمعوا ثروات طائلة ، فى أقصر وقت ! . والله ولى التوفيق .

حلمى مراد

